الباب الأول

في مملكة الهِنْد والسِّنْد

هذه مملكة عظيمة الشأن، لا يُقاس في الأرض بمملكة سِواها، لاتساع أقطارها، وكثرة أموالها وعساكرها، وأُبَهَّةِ سلطانها في ركُوبه، ونزوله، ودَسْتِ[1] ملكه، وفي صيتها وسمعتها كفاية.

ولقد كنت أسمع من الأخبار الطائحة، والكتب المصنَّفة ما يملأُ العين والسَّمع، وكنت لا أقف على حقيقة أخبارها، لبُعدها مِنَّا، وتنَائِي ديارها عَنَّا، فلما شَرَعْتُ في تأليف هذا الكتاب، وتتبعت ثقات الرواة، وجدت أكثر مما كنت أَسْمَع، وأَجَلَّ مما كنت أظن، وحسبك ببلادٍ في بحرها الدُّرُّ[2]، وفي بَرِّها الذَّهَبُ، وفي جبالها الياقوتُ[3] والماسُ[4]، وفي شعابها العُودُ[5] والكافُورُ[6]، وفي مدنها أَسِرَّةُ الملوك، ومن

---

(١) دَسْت الملك: أي العرش، أو الكرسي. أو الأريكة التي يجلس عليها الملك. «تكملة المعاجم ٤/ ٣٤٩».

(٢) الدرّ: اللؤلؤ العظيم الكبير واحدته دُرّة»، وجاء في «الموسوعة العربية الميسرة» (٧٧٨) «الأحجار الكريمة، وهي مواد معدنية وأحياناً عضوية تستعمل في أغراض الزينة، تتصف بالجماد وقدرة الاحتمال والندرة، لها خصائص ضوئية ذات بريق وتوهج. «المصباح المنير ١/ ٢٠٥».

(٣) الياقوت: حَجَرٌ ذهبي يكثر في جبل (الرَّاهون) في إحدى الجزر الواقعة خلف (سَرَنْدِيب)، تُحْدِرُه الرياحُ والسيولُ، فليتقطه الناسُ، ومن ألوانه: الأحمر، والوردي، والأصفر، والأبيض، ومن خواصِّه، قَطْع كُلِّ الأحجار مثل الماس... «الصبح ٢/ ١٠١ـ ١٠٣».

(٤) الماس: «ويتكون من معدن الياقوت، تُخْرِجُه السُّيولُ، والرياحُ من معدنه، وهو نوعان: بلَّوْري شديد البياض، زُجاجَيٌ يخالط بياضَه صُفْرَةٌ. يقطع الحجرَ، ويمحو النقوشَ التي بجميع الأحجار. «الصبح ٢/ ١٠٦ـ ١٠٧».

(٥) العُودُ: شجرٌ عظيمٌ، ينبت ببلاد الهند، وربما طُلب من قشْمير، وسَرَنْديب، وقمار. لا تصير له رائحة إلا بعد أَنْ يَعْتقُ ويُبَخر، ويُقَشَّر، يستخرج من قلب الشجر. وعند قطع شجره، يدفن فتأكل الأرضُ الخشَبَ ويبقى العود لا تؤثر فيه الأرض. ويُقال أن الأشجار العود في جبال شاهِقة لا يوصل إليها، فتنكسر بعضُ أشجارِه، وتأكل الأرض ما فيه من خشب ويبقى أَصل العود الخالص فتجرّه السيول إلى البحر ويقذف به إلى الساحل فيلتقطه الناس، أجوده ما كان صلباً رَزينا ظاهر الرطوبة، كثير المائية والدُّهنية، الذي له صبر على النار، وغليان، وبقاء في الثياب، وأفضل ألوانه الأسود، والأزرق، =

وحوشها، الفيل والكركدن[١]، ومن حديدها سيوف الهند[٢]، وبها معادن الحديد والزئبق[٣] والرصاص، ومن بعض منابتها الزَّعفران، وفي بعض أوديتها البِلَّوْر[٤]. خيراتها موفورة، وأسعارها رَخِيَّة وعساكرها لا تُعَدّ، وممالكها لا تُحَد، لأهلها الحكمة، ووفور العقل. أملك الأُمم لشهواتهم، وأَبذلهم للنفوس فيما يُظَنُّ به الزُّلْفى.

قال محمد بن عبد الرحيم الإقليشي الغرناطي[٥] في تحفة الألباب: «والمُلْك

= الذي لا بياض فيه. «نهاية الأرب ١٢/ ٢٣ـ ٢٥، صبح الأعشى ٢/ ١٢٥ـ ١٢٦».

(٦) الكافُور: أشرف الصُّمُوغ قَدْراً، وأحقها بالتقديم، لفضله في التركيب، ودخوله في أصناف الأدوية والطيب، ويقال فيه (القافور) بالقاف بدل الكاف، ينبت شجرُهُ في سفوح الجبال، كما جاء في «نهاية الأرب» أيضاً عدد من الطرق في كيفية جمعه؛ منها أن يُحْدث شَقٌّ في الشجرة، ويُجْمع ما ينزل من سائل صمغي في إناء، وقيل إنه يوجد بين لحاء الشجرة وعودها مثل الصمغ صغاراً، وكباراً، وقيل إنه يوجد في قلب العود بعد الخشب منظماً مثل الملح فيُقْلع منه، وهو عدة أصناف. «نهاية الأرب ١١/ ٢٩٢ـ ٢٩٥ و٥٢٩ـ ٥٣٠».
وجاء في «إحياء التذكرة ٥٢٩ـ ٥٣٠» أن أصل شجر الكافور من الصين واليابان يبلغ ارتفاعه عادة من عشرة إلى خمسة عشر متراً، وربما يزيد يُزْرع للزينة، وَطَرْدِ الذباب.
وللمزيد من التفصيل انظر: «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/ ٤٢ـ ٤٤».

(١) الكركدن: يكثر في بلاد الهند، ويُسَمِّى الحمار الهندي، له قرن واحدة في جبهته، مُحَدَّد الرأس إلا أنه ليس بالطويل «الصبح ٢/ ٣٥، نزهة المشتاق ٢/ ١٤٠».

(٢) سيوف الهند: تنسب إلى الهند لأنها تصنع فيها، ويقال: سيف مُهَنَّد. «الصبح ٢/ ١٤٠».

(٣) الزئبق: سيال معدني، منه ما يُسْتقى من معدنه، ومنه ما يُستْخرج من حجارة معدنية بالنار، معرَّب (زيوه) بالفارسية، والعامة تقول له: (الزِّيْبَق) وأصحاب الكيمياء المعدنية يُكَنُّونَ عنه بالعبد الفَرَّار لأنه يفر من النار، ويستخدمونه في أكثر الأعمال «محيط المحيط ٢٦٤».
كما جاء في «المعجم الوسيط ١/ ٣٨٧» أنه «عنصر فِلزِّيٌّ شائل في درجة الحرارة العادية».

(٤) البِلَّوْر: حجر بُورَقِيٌّ وأصل اليقوتية، إلا أنه قعدت به أعراضٌ عن رتبة الياقوت، اختلف في نفاسته يوجد في أماكن برية من أرض الحجاز، وهو أجوده، وما يأتي من الصين دونه، أما ما يأتي من بلاد الفرنج، فهو غاية الجودة. أجوده أصفاه، وأنقاه، وأَشَفُّه، وأبيضه وأسْلمه من التشعير، يذوب في النار، كما يذوب الزجاج، يقبل الصبغ، وإذا استقبل به الشمس ووجِّه موضع الشعاع الذي يخرج منه إلى خرقة سوداء احترقت، واشتعلت فيها النار «الصبح» (٢/ ١١٣ـ ١١٤).

(٥) محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن الربيع، أبو عبد الله، وأبو حامد المازني القيسي الأندلسي الغرناطي، عالم أديب حافظ رحالة، ولد بغرناطة سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م، رحل إلى الإسكندرية، وحدَّث في دمشق، وسمع في بغداد، دخل خراسان، ثم رجع إلى الشام، وأقام في حلب، وتوفي في دمشق ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م. له كتب منها: «تحفة الألباب ونخبة الإعجاب» نشره المستشرق الفرنسي جبرييل فران في المجلة الآسيوية، و«نُخْبة الأذهان في عجائب البلدان» و«عجائب المخلوقات» و«المُعْرِب عن عجائب المغرب».
ترجمته في: الوافي بالوفيات ٣/ ٢٤٥ـ ٢٤٦ وتاريخ آداب اللغة العربية ٣/ ٩٠ ومعجم المطبوعات ٢٩٩، والأعلام ٦/ ١٩٩ـ ٢٠٠.

العظيم، والعدل الكبير، والنعمة الجزيلة، والسياسة الحسنة، والرخاء الدائم، والأمن الذي لا خوف معه، في بلاد الهند والصين. وأهل الهند أعلم الناس بأنواع: الحكمة، والطب، والهندسة، والصناعات العجيبة، التي لا يُقْدَر على مثلها.

وفي جبالهم وجزائرهم ينبت شجر العُود والكافُور، وجميع أنواع الطيب: كالقَرَنْفَل(١) وجَوْز بُوا(٢)، والسُّنْبل(٣)، والدَّار صِينِي(٤) والقِرْفة(٥)، والسَّليخة(٦)، والقَاقُلَّة(٧)، والكَبابة(٨)، والبَسْبَاسة(٩)، وأنواع العقاقير، /١٠/ وعندهم غزال

---

(١) القَرَنْفَل: أَجْوَده القويُّ اليابس، الجاف الذَّكي، ومنه الزَّهْر، ومنه الثَّمر، والزَّهْر منه ما صَفُر، والثمر منه ما غَلُظ، وهو شجر عِظام يشبه شجر الدر، يجلب من بلاد سفالة الهند، وأقاصيها، وله بالمواضع التي هو بها روائح ذكية ساطعة الطيب جداً، حتى أنهم يسمون أماكن القرنفل بريح الجنة. «كتاب البلدان ١٢١ـ ١٢٢، ونهاية الأرب ١٢/ ٤٥ـ ٤٦».

(٢) جَوْز بُوا: هو جوز الطيب، شجر كبير دائم الخضرة، يوجد في جزر الهند والملايو، وسيلان، سهل الكسر، رقيق القشرة، طيب الرائحة أجوده أشده حمرة، وأدسمه وأرْزَنَه. وأدناه أشده سواداً وأخفه وأيبسه، «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١/ ١٧٥، إحياء التذكرة ٢٢٧ـ ٢٢٨».

(٣) السُّنْبُل: الناردين، وهو إما هندي إلى السواد طيب الرائحة، أو رومي ويُسمى «الإقليطي» يشبه الهندي في رائحته وأفعاله ولكنه أضعف، وسنبل الجبل المشهور بسنبل الأسد، وهو المر، ويوجد منه عشرة أنواع، وهي نباتات عطرية أشهرها عند العطارين السنبل الهندي وسوقه العطرية رائجة، ثم الرومي، ثم الخزامي، ويقال إن الأدوية التي تنبت فيها شجرة السنبل تكثر فيها الأفاعي، «كتاب البلدان ١٢١، المخصص ٣/ ١١/ ١٩٧، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/ ٣٦ـ ٤٠، نهاية الأرب ١٢/ ٤٣، والصبح ٢/ ١٢٠، إحياء التذكرة ٣٧٣ـ ٣٧٦».

(٤) الدَّارصِينِي: معناه بالفارسية شجرة الصين، ومنه الصيني، ومنه المعروف بالدارصوص، ومنه المعروف بالقرفة، وهي قرفة القرنفل، والدارصيني جسمه أضخم، وأثخن، وأكثر تخلخلاً من القرفة، وهو إلى القرفة أقرب لأنَّ حمرته أقوى من سواده وأظهر، حريف الطعم، «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٢/ ٨٣ـ ٨٥، إحياء التذكرة ٢٩٢».

(٥) القِرْفة: منها غليظ، ومنها رقيق، وكلاهما أحمر وأملس مائل إلى الحلو، فيه قليلاً، وظاهره خشن أحمر اللون إلى البياض قليلاً، رائحتها ذكية عَطِرَة، وفي طعمها حِدَّة، وحرافة مع حلاوة يسيرة. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٨٣».

(٦) السَّليخة: نباتٌ عِطْريٌّ، كأنه قشر منسلخ، تسمى باليونانية (كاسيا أروماتيكم) وأنواعها كثيرة، وهي متشابهة، ولا تختلف إلا قليلا حسب النَّبْت، واسمها العطاري (قرفة الصين)، وهي من نفس فصيلة القرفة العادية، وهي أضعف من القرفة العادية، في قوة زيتها، وقشورها أغلظ، «إحياء التذكرة ٣٥٩».

(٧) القَاقُلّة: نوع من الأفاوية العطرية، وهو صنفان: كبير، وصغير؛ والكبير حَبُّ أكبر من النَّبق بقليل له أقماع، وقشر، وفي داخله حب صغير مربع طيب الرائحة، ذو دَسَم أغْبر يؤتى به من اليمن، والهند، وهو ذو طعم حريف. أما الصغير فليس له أقماع ولا قشر وطعمه أكثر حرافة، وأقل قبضاً. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/ ٢» .

(٨) الكبابة: هو حب العروس: مثل الفلفل، لونها أصهب، منها كبير، ومنها صغير، «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/ ٤٨».

(٩) البَسْبَاسة: هي، قشور جوز بوا الذي يكون فوق القشرة الغليظة، وهي لباسه، وقشره الغليظ لا يصلح =

المسك[(١)]، وقِطُّ الزَّباد[(٢)]، ويخرج من بلادهم، أنواع اليواقيت، وأكثرها من جزيرة سَرَنديب»[(٣)].

وقد حكى ابن عبد ربه[(٤)]، في العقد[(٥)]، عن نُعيم بن حَمَّاد[(٦)]، قال: بعث

= لشيء، وثمره يصلح للطيب، وأجودها، الحمراء، وأدناه السوداء «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١/ ٩٣».

(١) في تحفة الألباب ٤٨ـ ٤٩: «حيوان المسك الفائق، وهو حيوان كالغزال، يجمع المسك في سرته» وجاء في «مروج الذهب ١/ ١٧٩ـ ١٨٠»، و«نهاية الأرب ١٢/ ٣ـ ٦»، و«صبح الأعشى ٢/ ١١٩»، أن أَصل المسك من دابة ذات أربع أشبه بالظَّبْي الصغير، توجد في مفازات الصين، وبين التبت والصُّغْد من بلاد الترك تصاد، وتؤخذ سررها بما عليها من شعر، والمسك فيه دم عبيط.

(٢) في تحفة الألباب ٤٩: وعندهم حيوان الزباد، وهو نوع من الطيب، وذلك الحيوان كالسّنور يُحْمل إلى بلد المغرب، وذلك عرق يؤخذ من ذلك الحيوان كالقِطْران الأسود ثخيناً يسيل من جسده، وتزيد رائحته بالمغرب بحيث يكون أذكى من المسك.

(٣) سَرَنْديب: دِيبٌ بلغة أهل الهند، جزيرة في بحر (هركند) بأقصى بلاد الهند، فيها جبل (الرَّهون)، هبط عليه آدم عليه السلام. «معجم البلدان ٣/ ٢١٥ـ ٢١٦» كما يُطلق عليها أيضاً اسم (سنكلديب) «كتاب البيروني» (١٦٨» راجع أيضاً «نزهة المشتاق ٧ـ ١٢»، وهي التي يطلق عليها اليوم، جمهورية سريلانكا «جغرافية القارات ٢٩٣».

(٤) أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حُدَير بن سالم الأندلسي، أبو عمر: الفقيه، الأديب الإمام صاحب العقد الفريد. من أهل قرطبة ولد سنة ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م. كان جده الأعلى (سالم) مولى لهشام بن عبد الرحمن بن معاوية. وكان ابن عبد ربه شاعراً مذكوراً فغلب عليه الاشتغال في أخبار الأدب وجمعها. له شعر كثير، منه ما سماه «الممحَّصات» وهي قصائد ومقاطيع في المواعظ والزهد، نقض بها كل ما قاله في صباه من الغزل والنسيب. وكانت له في عصره شهرة ذائعة. وهو أحد الذين أثروا بأدبهم بعد الفقر. أما كتابه «العقد الفريد ـ ط» فمن أشهر كتب الأدب. سماه «العقد» وأضاف النُّساخ المتأخرون لفظ «الفريد». وقد طُبع ديوانه «خمس قصائد» وأصيب بالفالج قبل وفاته بأيام. توفي سنة ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م. ولجبرائيل سليمان جبور اللبناني كتاب سماه «ابن عبد ربه وعقده ـ ط» ولفؤاد أفرام البستاني «ابن عبد ربه ـ ط».

ترجمته في: جذوة المقتبس ١٠١ـ ١٠٤ رقم ١٧٢، تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي. وبغية الملتمس ١٣٧ وابن خلكان ١/ ٣٢، وسير أعلام النبلاء /٢٨٣ رقم ١٢٦، وفيه أن الذي كان مولى لهشام هو جده جدير بن سالم. والبداية والنهاية ١١/ ١٩٣ ومجلة المجمع ١٥/ ٤٨٨ وبروكلمان في دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٢٢٣ ويتيمة الدهر ١/ ٣٦٠ـ ٤١٢، الأعلام ١/ ٢٠٧، معجم الشعراء للجبوري ١/ ٣٠١.

(٥) هذا النص في كتاب الحيوان للجاحظ.

(٦) نُعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث بن هَمّام بن سلمة بن مالك، الإمام الحافظ، أبو عبد الله الخزاعي، المَرْوَزِي، الفَرَضي، الأعور صاحب التصانيف، أول من جمع المسند في الحديث، وأعلم الناس بعلم الفرائض، من أهل مرو، طلب الحديث في العراق، والحجاز، ثم نزل مصر، وبقي بها حتى أُشخص إلى العراق في خلافة الواثق بالله بن المعتصم (٢٢٧ـ ٢٣٢هـ/ ٨٤١ـ ٨٤٦م)، =

ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز، كتاباً فيه:

«من ملك الأملاك الذي هو ابن ألف ملك، وتحته بنت ألف ملك، وفي مربطه ألف فيل، وله نهران ينبتان العود، والأَلُوَّة(١)، والجوز(٢) والكافور، والذي يوجد ريحه على اثني عشر ميلاً، إلى ملك العرب، الذي لا يشرك بالله شيئاً.

أما بعد: فإني بعثت بهدية، وما هي هدية، ولكنها تحية، وقد أحببت أن تبعث إليَّ رجلاً يعلمني ويفهمني الإسلام والسلام». يعني بالهدية، الكتاب.

حدثني الشيخ، العارف، المبارك، بقية السلف الكرام، مبارك بن محمود الإنبايتي(٣)، من ولد مجد شاذان، حاجب خاصي(٤)، نفع الله ببركاته، وهو الثقة الثبت، وله الاطلاع على ما يحكيه، لمكانته، ومكانة أسلافه، من ملوك هذه البلاد. قال: إن هذه المملكة متسعة غاية الاتساع، يكون طولها ثلاث سنين بالسير المعتاد، وعرضها ثلاث سنين، وعرضها ما بين سَومَنَات(٥)، وسَرَنْديب، إلى غزنة(٦)، وطولها

= وامتُحن بالقول بخلق القرآن، فلما رفض حُبس في سامراء، ولم يزل محبوساً حتى توفي في السجن يوم الأحد لثلاثة عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة (٢٢٨هـ/ ٨٤٢م)، وقيل سنة (٢٢٩هـ/ ٨٤٣م).

من كتبه: «الفتن والملاحم ـ خ» من نسخة في جامعة الرياض برقم ٢١٦.

ترجمته في: طبقات ابن سعد ٧/ ١٩٩، والتاريخ الكبير ٨/ ١٠٠، وتاريخ بغداد ١٣/ ٣٠٦ـ ٣١٤، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢، تهذيب التهذيب ١٠/ ٤٥٨ـ ٤٦٣، وحسن المحاضرة ١/ ٣٤٧، ميزان الاعتدال ٣/ ٢٣٨، مناقب الأمام أحمد ٣٩٧، هدية العارفين ٢/ ٤٩٧، الأعلام ٨/ ٤٠.

(١) الأَلُوَّة: نوع من الشجر، إذا أُحرقت أعواده ظهرت منها رائحة جميلة، وهو من الفصيلة «المارزيونية» وفصيلة «الألنجوجية» يخلط بفصيلة القرينة، ويسمى «العود الهندي»، أو «النَّد». «المعجم الوسيط ٢/ ٨٤٨».

(٢) الجوز: لعله (جوز الهند)، وهو النارجيل.

(٣) هكذا وردت أيضاً في «الوافي بالوفيات ٣/ ١٧٣»، أما في «الصبح ٥/ ٦٢» (الإنباتي)، وجاء فيه (٥/ ٧١)، أن إنباتي، نسبة إلى أَنبايت، وهي مدينة على ساحل بحر الهند، جاء في «الوافي بالوفيات ٣/ ١٧٣»، أنه من كبار دولة (محمد تغلق شاه)، ثم تزهَّد، ولعله هو الذي ترجم له (الحسيني) في «نزهة الخواطر ٢/ ١١٩» وقال عنه: «الشيخ الصالح مبارك ابن القاضي كريم الدين بن برهان الدين العمري البلخي، ثم الكوباموى، أحد الرجال المعروفين بالصلاح والفضل، قدم الهند، وتقرب إلى الملوك، فجعلوه ميرداد، بدار الملك بدهلي، وتلك رتبة سامية دون الوزارة، فاشتغل بها زمنا، ثم لازم الشيخ (نظام الدين محمد بن أحمد البدايوني)، وأخذ عنه الطريقة، ورفض الدنيا وأسبابها.

(٤) حاجب خاصي: أي الحاجب الخاص.

(٥) سُومَنَات: من أشهر مدن إقليم (كجرات)، وهي بلدة كبيرة على ساحل البحر، بها كنيسة عظيمة، فتحها محمود الغزنوي، وكسر صنمها، «نزهة الخواطر ٩/ ١١٣».

(٦) غزنة: في معجم البلدان ٤/ ٢٠١»: أن صحة لفظها عند العلماء «غَزْنين»، ويعرِّبونها فيقولون: =

من الفُرْضَة(١) المقابلة لعدن، إلى سدّ الإسكندر(٢) عند مخرج البحر الهندي من البحر المحيط، متصلة المدن ذوات المنابر، والأَسِرَّة(٣) والأعمال، والقُرَى، والضِّيَاع(٤)، والرَّساتيق(٥) لا يقطع بينها، ولا يفصل بينهما خراب.

قلت: وفيما ذكره من هذه المسافة، طولاً، وعرضاً ـ نظر ـ إذْ لا تفي جميع المعمورة بهذه المسافة، اللهم إلا إن كان مراده أَنَّ هذه مسافة من ينتقل فيها حتى يحيط بجميعها، مكاناً، فيحتمل على ما فيه. قال: وفي طاعة هذا السلطان(٦)، أهل بلاد قَرَاجِل(٧) لهم منه هدنة وأمان، على قطائع(٨) تُحْمل إليه منهم يُتَحَصَّل منها مال. وهذا جبل قَرَاجل به سبعة معادن ذهباً يَحْصل منها ما لا يُحْصى، وجميع هذه البلاد

= «جَزْنة»، وهي تطلق على مجموع بلاد «زابلستان» «وغزنة» قصبتها وهي الحدّ الفاصل بين خراسان والهند، بردها شديد، نُسب إليها عدد من العلماء، اتخذها محمود بن سبكتكين عاصمة لدولته، وكذلك أبناؤه من بعده. يذكر «كي لسترنج» في «بلدان الخلافة الشرقية» (٣٨٧)، أَنَّ غَزْنَة اشتهرت في خِتام المئة الرابعة للهجرة ومطلع المئة الحادية عشرة للميلاد، عندما أَصْبحت عاصمة للغزنويين، جدد بناءها محمود الغزنوي سنة (٥٤٤هـ/ ١١٤٩م).

(١) الفُرْضَة: الفرائضُ مواضع، فقد يجوز أنْ يعني الموضع نفسه، وقد يجوز أن يعني القصور يشبهها بمشارع المياه. «لسان العرب ٩/ ٧١».

(٢) سدَ الإسكندر: هو الإسكندر ذي القرنين وهو الذي بنى سداً بين القوم الذين استنجدوا به، وبين يأجوج، ومأجوج، الذين أفسدوا في الأرض، كما قَصَّ ذلك القرآن الكريم في «سورة الكهف: الآيات ٩٣ـ ٩٨». راجع ما جاء في «كتاب أحسن التقاسيم ٣٦٢ـ ٣٦٥».

(٣) الأَسِرّة: أَرْضٌ سِرٌّ كريمة طيبة، وقيل هي أطيب موضع فيه «لسان العرب ٦/ ٢٣».

(٤) الضِّيَاع: جمع (ضَيْعة) ومعناها مال الرجل من النَّخْل، والكَرْم، والأرض، كما تأتي بمعنى الأرض المُغِلَّة، وتأتي أيضاً بمعنى العقار. «لسان العرب ١٠/ ١٠٠، المصباح المنير ٢/ ١٢».

(٥) الرّساتيق: (الرُّزداق)، و(الرُّسْتاق)، واحدٌ، فارسي مُعَرَّب، ألحقوه «بقرطاس»، ويقال: (رُزْداق)، و(رستاق)، والجمع (الرَّساتيق)، وهي السَّواد، قال ابن السكيت: (رسداق) و(رزداق)، ولا تقل: (رستاق)، ومعناه بيوت مجتمعة. «لسان العرب ١١/ ٤٠٦ـ ٤٠٧».

(٦) أي (محمد تغلق شاه) أو طغلق شاه.

(٧) قَرَاجِل: جاء في رحلة ابن بطوطة ٤٨٣: أن بها جبلٌ يقال له (جبل قَرَاجل) كبير يتصل بمسيرة ثلاثة أشهر، بينه وبين دِهْلي مسيرة عشرة أيام، وسلطانه من أكبر سلاطين الكفار. كما جاء في «الوافي بالوفيات» (٣/ ١٧٣) أنه جبل يقارب المحيط الشرقي، وهي (أي بلاد قراجل) بلاد كفَّار، فيها معادن الذهب، وللسلطان (محمد تغلق شاه) أتاوة جزيلة عليها.

(٨) قطائع: الإقطاع، هو أنْ يُقْطِع لنفسه، أو لغيره أرضاً، أو أي نوع من المال الثابت، أو المنقول مما يجوز فيه تصرفه وتتنفذ فيه أوامره، وهو نوعان: إقطاع تمليك، وإقطاع استغلال، وتُسمى الأرضون (قطائع)، واحدتها (قطيعة)، وقد يُطلق الإقطاع أحياناً على الضريبة، كما حدث في العهد الأيوبي. «الأحكام السلطانية ١٩٠، مفاتيح العلوم ٥٦، النظم الإقطاعية ٤٧٢».

بَراً وبحراً مجموعة لسلطانها القائم الآن. إلا الجزائر المغلقة في البحر، فأما الساحل، فلم يبق به قيد فِتْر إلا بيده فتح مَغَالِقِه، /١١/ ومُلْك معاقله، وله الآن السِّكة والخطبة في جميع هذه البلاد، لا يشاركه فيها مشارك. قال: ولقد حضرت معه من الفتوحات العظيمة، ما أقوله عن المشاهدة والعِيَان على الجملة، لا على التفصيل، خوفاً من إطالة الشرح. فأول ما فتح مملكة «تِلِنك»(١)، وهي واسعة البلاد، كثيرة القرى، عِدَّة قراها تسع مائة الف قرية وتسعمائة قرية، ثم فتح بلاد «جَاجْنكز»، وبها سبعون مدينة جليلة كلها بَنَادر(٢) دخلها من الجواهر(٣)، والفيلة، والقماش المنوّع، والطِّيب، والأَفَاوِيه(٤). ثم فتح بلاد «الكنوتي»، وهي كرسي تسعة ملوك، ثم فتح بلاد «دَوَاكير»(٥)، ولها أربع وثمانون قلعة، كلها جليلات المقدار.

قال الشيخ برهان الدين أبو بكر بن الخلال البزي(٦): وبها ألف ألف قرية ومائتا ألف قرية.

عدنا إلى حديث الشيخ مبارك. قال الشيخ مبارك: (ثم فتح بلاد «دَوْرسَمند»(٧)، وكان بها السلطان «بلال الدَّيو» [وخمسة] ملوك كفار، ثم فتح بلاك «المَعْبَر»(٨)، وهو

---

(١) تِلِنْك: ذكر ابن بطوطة: في رحلته ٤٣٨: أنها على مسيرة ثلاثة أشهر من (دهلي) وقد وجه إليها السلطان (محمد تغلق شاه) عندما استقر في السلطة. ابنه في عسكر عظيم، فيه كبار الأمراء، مثل الملك (تَمُور)، والملك (تكين)، والملك (كافور)، و(المهردار)، والملك (بَيْرَم)، وغيرهم.

(٢) بَنَادِر: البَنْدَر، مرسى السفينة في الميناء، وقيل هو الميناء، وقيل المدن البحرية، وقيل مقر التجار من المدن وقيل هو البلد الكبير الذي تتبعه بعض القرى. «القاموس المحيط ١/ ٣٩١، محيط المحيط ٥٥، والمعجم الوسيط ١/ ٧١».

(٣) نص الصبح: (٥/ ٨٩)، «دخلها من الجوهر، والقماش النوع، والطيب، والأفاويه».

(٤) الأَفَاوِيه: الفُوه: الطيب، والجمع أَفْوَاه، مثل قُفْل وأَقْفَال، وأَفَاوِيه جمع الجمع. ويقال لما يُعالج به الطعام من التوابل، أفواه الطيب. «المصباح المنير ٢/ ١٤١».

(٥) في «الصبح ٥/ ٨٩» زيادة (ويقال لها دَكِير)، كما جاء في «الصبح» (٥/ ٧٠)، أنها مدينة، ذات إقليم متسع، وهي مدينة قديمة جدَّدَها السلطان (محمد تغلق شاه)، وسمَّاها قبة الإسلام، وفارقها، ولم تتكامل بعد.

(٦) وردت في الأصل: «البيزي» وما صوبناه من المراجع الأخرى منها «الصبح» (٥/ ٨٩) نصها «البزي» وفي موضع آخر من «الصبح ٥/ ٦٩»: (برهان الدين بن الخلال البزِّي، الكوفي).

(٧) كما يقال لها (بَسمد) أو (قَسْمَد) وهي مدينة خصبة تقع إلى الشرق من نهر (مِهْران)، (السند) حالياً، على بُعد فرسخ، وقيل نصف فرسخ «المسالك والممالك للاصطخري ١٠٤، صورة الأرض ٢٧٦-٢٧٩، موسوعة السند والبنجاب ٢/ ٢٨٧».

(٨) المَعْبَر: جاء في تقويم البلدان ٣٦١»: «وفيها يُجلب اللانس، وبقصارتها يُضرب المثل، وفي شماليها جبال متصلة ببلاد (بلهرا) ملك ملوك الهند، وفي غربيها يصب نهر (الصوليان) في البحر».

إقليم جليل له تسعون مدينة بَنَادر على البحر يجيء من دخلها: الطيب، واللانس، والقماش المنوع، ولطائف الآفاق).

وحدثني الفقيه العلامة سراج الدين أبو الصفا عمر بن إسحاق بن أحمد الشِّبْلي العِوَضي(١)، من إقليم عِوَض، من الهند، وهو من أعيان الفقهاء، الذين يحضرون حضرة السلطان(٢) بدهلي، أن أُمهات الأقاليم التي في مملكة هذا السلطان ثلاثة وعشرون إقليماً وهي: إقليم «دِهْلي»(٣)، وإقليم «الدواكِير»، وإقليم «الملتان»(٤)، وإقليم «كهران»، وإقليم «سَامَانا»(٥)، وإقليم «سِيوسِتان»(٦)، وإقليم «وجَّا»، وإقليم «هاسي»(٧)، وإقليم «سرستي»(٨)، وإقليم «المَعْبَر» وإقليم «تِلِنْك»، وإقليم

---

(١) سراج الدين، أبو حفص، عمر ابن الشيخ نجم الدين إسحاق بن شهاب الدين أحمد الغزنوي، الهندي، المعروف بالسَّرَّاج الهندي، هندي الأصل والمولد، مصري الدار والوفاة، قاضي قضاة الحنفية في مصر خمسة عشر عاماً، ولد سنة (٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م) وقيل سنة (٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م) قدم القاهرة قبل (سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م) قبل الأربعين من عمره. تولى قضاء العسكر في «مصر» سنة (٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م) وولي قاضي قضاة الحنفية استقلالاً سنة (٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م). من تصانيفه: شرح المُغْني في أصول الفقه، للحنازي، زبدة الأحكام في اختلاف الأئمة الأعلام، شرح بديع الأصول، لابن الساعاتي، شرح الهداية، المسمى (التوشيح) الشامل في الفقه، وغيرها. توفي في سابع رجب سنة (٧٧٣هـ/ ١٣٧١م).
ترجمته في: السلوك لمعرفة دول الملوك ٣/ ١/ ١٥٨، ٢٠٠، والدرر الكامنة ٣/ ٢٣٠ـ ٢٣١، وحسن المحاضرة ١/ ٤٧٠ـ ٤٧١، والنجوم الزاهرة ١١/ ١٢٠ـ ١٢١، والمنهل الصافي ١/ ٤٩٥، وشذرات الذهب ٦/ ٢٢٨ـ ٢٢٩، ومفتاح السعادة ٢/ ٥٨، ونزهة الخواطر ٢/ ٩٥ـ ٩٦، والأعلام ٥/ ٤٢.

(٢) يقصد به السلطان (محمد تغلق شاه)، وقد ذكر ابن بطوطة في «رحلته ٥٠٣» خبر وجود هذا القاضي في حضرة السلطان. وكان يطلق عليه «قاضي قضاة الممالك في مصر».

(٣) دِهْلي: إحدى مدن (شاهجان آباد)، ويُقال لها (دَلّي) «نزهة الخواطر ٩/ ٧٦».

(٤) المُلْتان: ولاية في إقليم السَّند، وملتان أيضاً مدينة مشهورة، أُتُّخِذت قصبة لتلك الولاية، يسميها العرب «فرج بيت الذهب»، لأنها فُتحت في أول الإسلام، على يد (محمد بن يوسف) أخي (الحجاج بن يوسف الثقفي) وكان المسلمون في ضيق، وقحط، فوجدوا فيها ذهباً كثيرا فاتسعوا به، وسُمِّيت بـ(الملتان) نسبة إلى صنم كبير، كانت تعظمه الهنود. «المسالك والممالك لابن خرداذبة ٥٦، المسالك والممالك ١٠٣، صورة الأرض ٢٧٨، نزهة المشتاق ٤١ـ ٤٦، نزهة الخواطر ٩/ ١٠٩، موسوعة السند والبنجاب ٢/ ٢٨٤.

(٥) سَامَان: في نزهة الخواطر ٩/ ٨١: «سامانة كانت بلدة حسنة من توابع سرهند».

(٦) سِيوسِتان: من أشهر مدن إقليم (تهته)، وبينها وبين مُلْتان مسيرة عشرة أيام، وتُسمى اليوم (سِيوهن)، وتقع في مديرية (داود). «نزهة الخواطر ٩/ ١١١، الحكومات العربية ٦١، موسوعة السنّد والبنجاب ٢/ ٢٧٧.

(٧) هاسي: في رحلة ابن بطوطة ٤٤٨، ٥٠١: (حَانسي)، وفي نزهة الخواطر ٩/ ٨١: هَانْسي، من أشهر مدن إقليم (شاهجان آباد).

(٨) سرستي: يذكر ابن بطوطة في رحلته ٤١٣: أنه وصل إليها بعد سَفَرٍ دام أربعة أيام من مدينة =

«كَجُرَات»[(١)]، وإقليم «بَدَوان»[(٢)]، وإقليم «عِوَض»، وإقليم «القِنَّوْج»[(٣)]، وإقليم «لَكْنوتي»[(٤)]، وإقليم «بِهَار»[(٥)]، وإقليم «كِرَة»[(٦)] وإقليم «ملاوة»[(٧)]، وإقليم «لَهاور»[(٨)]، وإقليم «كلافور»[(٩)]، وإقليم «جَاجَنْكز»، وإقليم «تلنج»، وإقليم «دَوْرسَمَنْد» وهذه «الأقاليم» تشتمل على ألف مدينة، ومائتي مدينة، كلها مدن ذوات نِيَابَات[(١٠)]، /١٢/ كباراً، وصغاراً، وبجميعها الأعمال، والقرى العامرة الآهلة،

= (أجُودَهَن)، وهي مدينة كبيرة تشتهر بكثرة الأرز، الذي يُحصل منها إلى مدينة (دِهْلي)، ويُقال لها (سرست)، و(سرشت). وربما تكون هي منطقة نهر (سَرْسوتي) وربما يكون موقعها الآن مدينة (سدهبور) ناحية سوراته الساحلية جنوب إقليم (كجرات)، المعروف حالياً (سوراتشر). «تعريف مدن الهند وتحديدها» (العصور مجلد ٢ جزء ١/ ١٤٠).

(١) كَجُرَات: إقليم طوله ٣٠٢ ميل، وعرضه ٢٧٠ ميل، ويشمل ثلاثة عشرة مدينة. «نزهة الخواطر ٩/ ٧١ـ ٧٢، ١١٢».

(٢) بَدوان: من مدن (شاهجان آباد) بينها وبين (دهلي) مسافة عشرين يوماً، فتحها سلطان دولة المماليك في (دهلي)، (قطب الدين أيبك). «نزهة الخواطر ٩/ ٨٠».

(٣) في الأصل «الفيوج» والتصحيح من رحلة ابن بطوطة ٤٩١ والصبح ٥/ ٧٧، وجاء اسمها في كتاب البيروني ١٥٨: «كنوج»، وذكر أنها تقع على غرب نهر (الكنك) وقد كانت بلداً كبيراً، إلا أنها تعطّلت بسبب نقل مقر الملك عنها، إلى مدينة (باری) كما جاء في «نزهة الخواطر» (٩/ ٥٩، ٨٥)، يقال لها (كسنّور)، وهي مدينة حسنة الأبنية، حصينة لها سور عظيم، كانت قاعدة مملكة الهند في القديم، فتحها (محمود بن سبكتكين الغزنوي)، ثم (قطب الدين أيبك)، وهي الآن بلدة صغيرة، خاوية على عروشها بينها وبين (دهلي) مسيرة عشرة أيام.

(٤) لكنوتي: وتُعرف بـ(لكنو)، أو (الكهنؤ)، وتقع شرق نهر (الكنك)، (الجانج)، إلى الجنوب من (القِنَّوْج). «رحلة ابن بطوطة» (٤٨٩) و«أطلس هازادر» (٤١) و«أطلس تاريخ الإسلام» (٢٤٦ـ ٢٥١).

(٥) بِهَار: من أشهر أقاليم الهند، في العصر الإسلامي، (وبِهَار) أيضاً اسمٌ لمدينة اتُخِذَت عاصمة لأقليم عُرِف باسمها، وقد كانت بلدة كبيرة، وعامرة، ثم تحولت إلى بلدة صغيرة تابعة لإقليم (عظيم آباد) في الوقت الحاضر. «نزهة الخواطر» (٩/ ٩٤ـ ٩٥).

(٦) كِرَة: ويقال لها (الكيرج، أو كهيدا) عاصمة إقليم (الكجرات)، من مدن الهند القديمة، وهي حالياً بُلَيدة صغيرة بالقرب من مدينة (أحمد آباد) التي أنشأها المسلمون في القرن التاسع الهجري، فأصبحت عاصمة للإقليم. «تعريف مدن الهند، وتحديدها» (العصور مجلد ٢ جزء ١/ ١٤١).

(٧) ملاوة: ويقال لها مَالْوه، ولاية فسيحة طولها من (كوته) إلى (سودر) ٢٤٥ ميلاً، وعرضها من (جنديري)، إلى (أندريا) ٢٣٠ ميلا. «نزهة الخواطر» (٩/ ١١٥)، راجع أيضاً «تعريف مدن الهند وتحديدها» (العصور مجلد ٢ جزء ١/ ١٤٤).

(٨) في الأصل: «نهاور» والتصحيح من «الصبح ٥/ ٧٧، ونزهة الخواطر ٩/ ٦٤، ١٠٦» وجاء فيه، أنها اسم مدينة أطلقه العرب، على مدينة (لاهُور)، وكانوا يطلقون عليها أحياناً (لَوْهَوْر)، وهي قصبة بلاد (البنجاب)، تقع على طريق القوافل بين الهند، وأفغانستان.

(٩) يُقال لها أيضاً (كلانور)، و(كلاور)، وهي من أهم مدن (لاهور). «نزهة الخواطر» (٩/ ١٠٧).

(١٠) نِيَابَات: النِّيَابَة، سلطانٌ مختصرٌ فيما هو نائب عن الحضرة، والنائب هو المتصرف المطلق التصرف =

ولا أعرف ما عدد قراها، وإنما أعرف أَنَّ إقليم «القِنَّوْج» مائة وعشرون لُكّاً، كل لك مائة ألف قرية، فيكون اثني عشر ألف ألف قرية. وإقليم «تِلِنْك» وهو ستة وثلاثون لُكاً، فيكون ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف قرية. وإقليم مالْوَه، أكبر من إقليم «القِنَّوْج»، ولكِنِّي لا أَحَزرُ كَمْ عدده. وأما «المَعْبَر» فيشتمل على عدة جزائر كبار كل واحدة منها مملكة جليلة، مثل «كَوْلَمْ» و«مَتن»، و«السِّيلان»، و«مَلِيبَار».

وقال الشيخ «مبارك»: وعلى «لَكْنُوتي» مائتا ألف مركب، صغاراً خفافاً للسير. إذا رمى الرامي في آخرها سهماً، وقع في وسطها، لسرعة جريانها، هذا غير الكبار، ولا تبلغ بعض هذا العدد. ومنها ما فيه الطواحين، والأفران، والأسواق، وربما لا يتعرف بعض سكانه ببعض، إلا بعد مدة، لاتساعها، وعظمها. وجَرَّدت من جغرافيا تحقيقاً طولها؛ وهو من الواق واق[1]، إلى قبالة عَدن، وعرضها من سَرَنْديب، إلى بوارُو الواقعة غربي قَرَاقُرْم[2]. وأقول بعبارة أبسط من هذا، وأوضح لِمَن أراد تأمّل لوح الرسم في الجغرافيا الكاملة، فنقول: طولها من مخرج البحر الهندي، من المحيط في نهاية الصين، في المشرق دون جزيرة الجوهر، والواق واق المائلة إلى

= في كل أمر يُرَاجع فيه؛ في المال، والجيش، والبريد، يَسْتَخدم الجند، ويُرَتِّب الوظائف، إلا فيما هو جليل، كالوزراء، والقضاة، وكتاب السِّرِّ، والجيش، فإنه ربما عَرَضَ على السلطان من يَصْلح، وَقَلَّ أنْ لا يُجَاب ويسمى أكابر النُّواب (ملك الأمراء)، وتنقسم النِّيَابَات إلى صِغَارٍ تدخل في أعمال النيابات الكبار، ونيابات كِبَار كالشام مثلاً، وتولية السلطان في النيابات الكبار أكثر، بينا تولية النواب في الصِّغار أكثر، «الصبح ١٢/ ٦ـ ٧. وسيرد تفصيل ذلك في هذا السفر «ممالك مصر والشام والحجاز واليمن»،

(١) الوَاقْ وَاق، أو (الوَقْوَاق): جاء في «كتاب البيروني ١٦٩»: أنها جزيرة. من جملة (قمير)، وهو اسم، لا كما تظنه العوامُّ من شجرة حَمْلُها كرؤوس الناس تصيح، ولكن (قمير) قومٌ ألوانهم إلى البياض، قِصارُ القدود، على صُوَر الأتراك، ودين الهنود، مُخَرَّمي الآذان، وأهل جزيرة (الوَقْوَاق) منهم سود الألوان...).

كما يذكر القزويني في «آثار البلاد ٣٣»: أنها جزيرة في بحر الصين، تتكون من ألف وستمائة جزيرة، فيها ذهب وفير، حتى أَن أَهلها كانوا يتخذون سلاسل كلابهم وأطواق قردهم من الذهب، يأتون بالقمصان المنسوجة من الذهب.

كما يذكر في «عجائب المخلوقات ١٥٤»: أنها ألف وسبعمائة جزيرة، تملكها امرأة سُمِّيَت بهذا الاسم، لأنَّ بها شَجرٌ يَسْمَع من يمر بها صَوْتَه، كأنه يقول: «وَاقْ وَاقْ»، وأهلها يفهمون من هذا الصوت شيئاً، فيتطيرون منه. وقد أشار (البيروني) إلى خطأ هذا الاعتقاد.

(٢) قَرَاقُرْم: جاء في كتاب «تقويم البلدان ٥٠٤ـ ٥٠٥»: أنها في أقصى بلاد الترك الشرقية، وقد كانت قاعدة (التتر)، وفي جهاتها (المُغْل)، وهم خالصة (التتر)، ومنها خاناتهم. كما جاء في «رحلة ابن بطوطة ٦٤٤»: أن قَرَاقُرم كانت من بلاد (الخَطَا).

الجنوب، آخذاً في البحر إلى حيث ينعطف مغرباً على جزيرة الموجه[١] - أم جزائر الصين - مع طول البحر، حتى ينتهي إلى فُرْضَة المغرب، ثم يمتد من هناك براً وبحراً، آخذاً في الشمال إلى بوارُو غربي قَرَاقُرْم، على حد بلاد كشتغد[٢]، إلى حد بلاد مُكْران، ممتداً على نهر مُكْران[٣]، إلى أن يدخل السند في حده قريب كِرْمان[٤]، ثم ينتهي هناك إقليم الهند في البير[٥]، وآخره المنصورة[٦]، وتتصل جزائره في البحر

(١) جزيرة الموجه: هناك إشارة للمسعودي في «مروج الذهب ١/ ١٩٤- ١٩٥» يذكر فيها، أن أهل هذه الجزيرة بيض، ذوو حسن وجمال ولهم خيل كثير، يشبه أهلها، أهل الصين في لباسهم، وهي بلاد منيعة تتميز بالجبال الشاهقة.

(٢) كشتغد: لعلها تاشكند، أو طشقند، أو تاشكنت، وهي إقليم الشاس قديما تقع إلى الغرب من (فرغانه)، على ضفة نهر (سَيْحون) اليُمْنى، الشمالية الشرقية، سمَاها العربُ (الشّاش)، والفرس (جاج)، كانت أعظم المدن العربية، فيما وراء سَيْحون في العصور الوسطى، وكان يُقال لها (نبكث) لحق بها الدمار أثناء فتوحات (محمد خوارزم شاه)، ثم على يد (المغول) بعد ذلك، في أوائل المائة الثامنة الهجرية (الرابع عشرة ميلادية)، وهي عاصمة تركستان الروسية حالياً (بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٤، ٥٢٥».

(٣) مُكْرَان: اسمٌ لسيف البحر، وولاية واسعة تشتمل على عدد من المدن والقرى، تقع الهند شرقيها «معجم البلدان ٥/ ١٧٩- ١٨٠»، وتعتبر جبال (مُكْرَان) القاحلة، امتدادا للمفازة الكبرى «بلدان الخلافة الشرقية ٣٦٧، وتقع (مُكْرَان) حالياً في أقصى الجنوب من (إيران)، على ساحل بحر (عُمان)، وهي بلاد صحراوية، يكاد يكون مِنَ المتعذر اجتيازها. «الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي ٥٩١».

(٤) كِرْمان: ولاية واسعة تقع بين فارس، وَمُكْران، وسجستان، وخراسان، ومُكْرَان، ومفازة ما بين مُكْران، والبحر شرقيها، وغربيها أرض فاس، وشماليها مفازة خراسان، وجنوبيها بحر فارس، كثيرة النخل والزرع، والمواشي والضرع، بلغت قمة ازدهارها في عهد السلاجقة. «صورة الأرض ٣٦٦، معجم البلدان ٤/ ٤٥٤، عاصمته الإسلامية (السيرجان)، أو (الشيرجان)، واتخذ بنو (بوية) مدينة (بردسير) عاصمة لهذا الإقليم، «بلدان الخلافة الشرقية ٣٣٨- ٣٣٩».
و(كِرْمان)، تنفصل عن (عُمَان) بمضيق (هرمز) وهي عبارة عن التواءات جبلية متراصّة بين إقليم مُكْرَان، وفارس، تمثل الحافَّة الجنوبية لهضبة إيران. «الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي ٥٩- ٦٠».

(٥) البير: لعلها، (التّيْز) إحدى مدن مُكْرَان) اعتبرها (البشاري) أنها الباب الثاني، لهذا الإقليم، حيث إنَّ الباب الأول هو (طوران)، وهي على البحر، تشتهر بالنخيل، وكثرة الرِّبَاطات، وجامعها الحَسَن، فهي فُرْضَةٌ مشهورة في تلك البلاد. كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٤٧٥- ٤٧٨، المسالك والممالك للإصطخري ١٠٥- ١٠٦، نزهة المشتاق ٣٧».

(٦) المنصورة: مدينة معروفة، اسمها بالهندية (باميران)، «نزهة المشتاق ٣١- ٣٢»، وتقع على الجانب الشرقي لنهر السِّند، اتخذها المسلمون عاصمة لبلاد السند منذ أوائل القرن الثاني إلى أوائل القرن الخامس الهجري، بناها في أواخر العصر الأموي والي بلاد السِّند (عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي)، سنة (١٢١هـ/ ٧٣٨م).
«موسوعة بلاد السند والبنجاب ٢/ ٢٦٧»، تُسمى (المنصورة) بـ(المحفوظة)، موقعها في الوقت =

إلى قبالة عدن، وأما عرضه، فمن سَرَنْديب، وما هو على سمتها في الجنوب، إلى بوارُو، وما على سَمْتها في الشمال وحدود هذه المملكة من الجنوب، البحر، وما يمتد معه من كورة قَرَاجِل، ومن الشرق لَهَاوُر، وكلاوَر، ومن الشمال بلاد الترك، ومن الغرب سالكوت(١)، والمفازة(٢)، /١٣/ ومدينة دِهْلي، وهي قاعدة الملك، ثم بعدها قُبّة الإسلام، وهي مدينة الدَّواكير، جددها هذا السلطان(٣)، وسَمّاها (قبة الإسلام). قال: ودِهْلي في الإقليم الرابع. قلت: وهكذا قال الملك المؤيد(٤) صاحب حماة ـ رحمه الله ـ في (تقويم البلدان)(٥)، ونقله عَمَّنْ يوثَق به من أهل هذا الشأن(٦).

قال الشيخ مبارك: وأما قُبَّة الإسلام فتكون في الثالث، وفارقتها، وما تكامَلَت ولي الآن عنها ست سنين، وما أظنها تكون قد تكَمَّلَتْ، لِعظَم ما حصل الشروع فيه، من اتساع خطة المدينة، وعظم البناء. وأن هذا السلطان، كان قد قسمها على أن تبنى

= الحاضر على بعد تسعة أميال من شهداء (ديور) بمديرية (سَاْنْكهر) بالسّند وأطلالها على مسافة ميلين من نهر (حميْراؤ)، وتطلق العامة على منطقة المنصورة (دَكور)، قامت فيها دولة عربية، عُرفت بالدولة (الهبَّارية)، نسبة إلى هبَّار بن أسود الأسدي القرشي. (٢٤٠هـ ـ ٤١٦هـ/ ٨٥٥ـ ١٠٢٥م)، «الحكومات العربية ٦٣ـ ١٣٢».

(١) سالكوت: هكذا رُسمت في الأصل، لعلها (سيالكوت)، وهي مدينة على حدود كشمير، من أشهر مدن إقليم (لاهور)، يسميها (العرب) (سيلكوت) و(سلكوت)، تبعد عن مدينة (لاهور) مسافة خمسة وسبعين ميلا. «نزهة الخواطر ٩/ ٦٤ـ ١٦٠».

(٢) المفازة: تقع بين (كِرْمان)، و(مُكْران)، و(السِّند) وهي أكثر سكاناً وأمنا من (المفازة الكبرى) «صورة الأرض ٣٤٠».

(٣) أيْ (محمد تغلق شاه).

(٤) إسماعيل بن علي بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، عماد الدين، صاحب حماه، ولد سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م وكان أميراً في دمشق خدم الملك الناصر عندما كان في الكَرَك، ووعده بسلطنة حماه، فوفى له بذلك، له مشاركات علمية جيدة، في الفقه، والطب، والحكمة، وعلم الهيئة، محبا للعلماء، مقرِّباً لهم. من مؤلفاته: «المختصر في أخبار البشر»، أو «تاريخ أبي الفدا»، و«تقويم البلدان»، و«تاريخ الدولة الخوارزمية»، و«نوادر العلم»، و«الكناش» في النحو والصرف، «والموازين»، وغيرها. توفي في المحرم من سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م، ولَمَّا يكمل الستين من عمره.

ترجمته في: فوات الوفيات ١/ ١٨٣، آداب اللغة ٣/ ١٨٧، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ٨٤، والبداية والنهاية ١٤/ ١٥٨، والدرر الكامنة ١/ ٣٩٦، والمنهل الصافي ٢/ ٣٩٩، والنجوم الزاهرة ٩/ ٢٩٢، والأعلام ١/ ٣١.

(٥) طُبع باعتناء وتصحيح (رينود)، و(البارون ماك كوكين بسلان)، في باريس، بدار الطباعة السلطانية سنة (١٨٤٠هـ).

(٦) تقويم البلدان ٣٥٨.

محلات، لأهل كل طائفة محلة؛ الجند في محلة، والوزراء والكتّاب في محلة، والقضاة والعلماء في محلة، والمشائخ والفقراء في محلة، والتجار والكسّاب في محلة. وفي كل محلة ما تحتاج إليه من المساجد، والمواذِن، والأسواق، والحمَّامات، والطواحين، والأفران، وأرباب الصنائع من كل نوع، حتى الصُّوَّاغ، والصَّبَّاغين، والدَّبَّاغين حتى لا يحتاج أهل محلة إلى أخرى، في بيع ولا شراء ولا أخذ ولا إعطاء؛ لتكون كل محلة، كأنها مدينة مفردة، قائمة بذاتها، غير مفتقرة في شيء إلى سواها، وليس في هذه المملكة خراب، إلا تقدير عشرين يوماً مما يلي غَزْنَة، لتجاذُب صاحب الهند، وصاحب تُرْكُسْتان، وما وراء النهر[١]، بأطراف المُنازَعة، أو جبال معَطَّلة، أو شَعْراء[٢] مشتبكة. ومتحصلات تلك من نبات العطر والأفاوية، والعقاقير الداخلة في أدوية الطب أعود نفعاً من الغلات المزدرعة بما لا يقاس.

قلت: وقد أَوْقَفني، الفاضلُ نظام الدين يحيى بن الحكم[٣] على تأليف قديم في البلاد، وذكر فيه: إن جميع قرى المُلْتان مائة ألف قرية وستة وعشرون ألف قرية مُثْبَتة في الدِّيوان، وهو ودِهْلِي في الرَّابع، ومعظم المملكة في الثاني، والثالث، وكلها فسيحة، وبلادها صحيحة، إلا مزارع الأرز؛ فإنها وخيمة، وبقاعها ذميمة. وحكي في ذلك التأليف أَنَّ محمد بن يوسف الثَّقفي[٤] أصاب[٥] بالسِّند أربعين

---

(١) هو، نهر (جَيْحون)، أو (أَمُودُريا).

(٢) شَعْراء: الشَّعْرَاءُ الشَّجَر الكثير والشَّعْرَاء من الأرض ذات الشَّجر. «محيط المحيط ٤٦٩».

(٣) يحيى بن عبد الرحمن الجَعْبَري، (وقيل الجعفري) الطياري البغدادي، نظام الدين، المعروف بابن النور، الحكيم، أصله من بغداد، اشتغل والده بصناعة الكحل، كَثُر ماله، وأشغل ابنه يحيى، فتأدب وبرع في الموسيقى، وكتب الخط الجيّد، وكان من كبار الخطاطين في عصره واتصل بالقان أبي سعيد، وكتب عنه الكتب بالعربية، إلى مصر، وغيرها. قدم دمشق مع الوزير نجم الدين، ثم دخل القاهرة صحبته وخدم قوصون، ثم عاد إلى دمشق، توفي سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٩هـ وقيل بعد ٧٧٠هـ.
ترجمته في: ابن قاضي شهبة، وفيات سنة ٧٦٠هـ وقال: وفاته بهذه السنة أو في التي بعدها، الدرر الكامنة ٤/ ٤١٧، الموسيقى العراقية ٤٤ـ ٤٦، الأعلام ٨/ ١٥٣.

(٤) محمد بن يوسف الثقفي، أخو الحجاج، استعمله أميراً على صنعاء، وضَمَّ إليه الجند، وما زال والياً عليها إلى أن توفي سنة ٩١هـ/ ٧٠٩م وقيل سنة ٩٠هـ/ ٧١٠م.
ترجمته في: البداية والنهاية ٩/ ٨٠، والأعلام ٧/ ١٤٧، تاريخ خليفة بن خياط ٢٩٣، ٣١١، وتاريخ الرسل والملوك ٢/ ١٥٦، ٦/ ٤٩٨، تاريخ الإسلام للذهبي ٤/ ٥١، رغبة الآمل ٥/ ٣٠ و٢٣٥، تاريخ الخميس ٢/ ١٣١٣.

(٥) جاء في «المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ١٥٦: وسُمِّيت (المُلْتان). فَرْجَ بيت الذهب، لأن (محمد بن يوسف)، أخا (الحجاج بن يوسف) أصاب في بيتٍ بها أربعين بَهَاراً ذهباً، والبَهَار ثلاثمائة =

بَهَاراً[١] من ذهب، كل بَهَار ثلاثمائة، /١٤/ وثلاثة وثلاثون مَنّاً[٢]، قال: ومن بلاد غَزْنة، والقَنْدَهار آخر حدّه.

وسألت الشيخ مبارك، كيف بَرّ الهند وضواحيه؟ فقال لي: إن به أنهاراً ممتدَّة، تُقارب ألف نهر كباراً وصغاراً، منها ما يضاهي النيل عِظَماً، ومنها ما هو دونه، ومنها ما هو دون هذا المقدار، وما هو مثل بقية الأنهار، وعلى ضفات الأنهار القرى، والمدن، وبه الأشجار الكثيفة، والمُرُوج الفِيَح، وهي بلادٌ معتدلة لا تتفاوت حالات فصولها، ليست بمفرطة في حَرّ، ولا بَرْد، كأَنَّ كل أوقاتها ربيع، وتَهُبّ بها الأهْوية، ويُتِنَسَّم النَّسِيم اللطيف، وتتوالى بها الأمطار مدة أربعة أشهر، وأكثرها في أُخريات الربيع، إلى ما يليه من الصيف، وبها أنواع من الحبوب؛ الحنْطة والأرْز، والشَّعير، والحِمَّص، والعَدَس، والماش[٣]، واللوبياء[٤]، والسِّمسم، وأما الفول، فلا يكاد يوجد فيها ـ قلت: وأظن عدم الفول بها؛ لأنها بلاد حكماء، وعندهم أن الفول يُفْسد جوهَرَ العقل، ولهذا حرَّمته الصابئة[٥] ـ قال: وبها من الفواكه، شيء من

= وثلاثون مَنّاً، فسميت فَرْجَ بيت الذهب. والفَرْجُ: الثَّغْر، يكون مبلغ ذلك الذهب ألفي ألف وثلاثمائة ألف وسبعة وتسعين ألفا وستمائة مثقال.

(١) بَهَارا: البَهَارُ، الحِمْلُ، وقيل: هو ثلاثمائة رِطْل بالقبطية، وقيل أربعمائة رِطْل، وقيل: ستمائة رطل، وقيل: ألف رطل، وقيل: البَهَار شيء يوزَن به، وهو ثلاثمائة رطل وقيل: وعاء يوضع فيه الذهب والفضة، وقيل: كلمة بَهَار غير عربية، بل قبطية، وقيل: عربية، وهو ما يُحْمل على البعير بلغة أهل الشام، «لسان العرب ٥/ ١٥١».

(٢) مَنّاً: المن، وزنه مائتين وسبعة وخمسين (درهماً)، وسبع درهم، (وبالمثاقيل) مائة وثمانون مثقالاً، و(بالأواقي)، أربع وعشرون أوقية، كما يطلق (المنّ) على ما يكال به السمن وغيره، وقيل يوزن به رطلاً. «مفاتيح العلوم ١٩، المصباح المنير ٢/ ٢٤٩ وفي الهند، يعادل المن (٤٠) سيراً، أو (٣٧) كيلو جراماً و(٣٦٠) جراماً. «نزهة الخواطر ٩/ ٣٨٠».

(٣) الماشَ: نوع من الحبوب الصغيرة، أخضر اللون، له عين كعين اللوبياء، وهو على ثلاثة أنواع: ماش فاصوليا، واسمه العلمي (فاصيولي)، ويسمى (أقطن)، وماش (سُمْنة)، وماش (لوبيا بلدي)، والثاني، يسمى (ماشة) وتوكل جذوره، أما الأول، والثالث، فهما من اللوبياء «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/ ١٢٦، إحياء التذكرة ٥٧٧ ـ ٥٧٨».

(٤) اللوبياء: له ورق ناعم، وقُصْبان دقاق: شبيهة بالخيوط تشتبك بالنَّبات المجاور لها بعضه يستطيل، حتى يُسْتَظل تحته، له غلف، في جوفه حَب مختلف اللون، منه ما يميل إلى الحمرة، ومنه ما يميل إلى البياض، ومنه ما يميل إلى السواد «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/ ١١٢».

(٥) الصابئة: فرْقتين أُطلق عليهما اسم الصابِئة، المَنْديا، وهي فرقة يهودية نصرانية، تمارس شعيرة التعميد في (العراق)، وصابئة حَرَّان، وهي فرقة وثنية استمرت حتى بعد ظهور الإسلام. ويقال أنّ أوّل من أحدث مذاهب الصابئة رجلٌ يُقال له (بوداسف)، الذي ظهر في عهد الملك الفارسي (طهمورث) وقال: إن الكواكب هي المدبرات، والواردات، والصادرات، وهي التي بمرورها في أفلاكها، =

التِّين، والعنب، والرّمان الكثير الحُلْو والمُزّ(١) والحامض، والموز، والخوخ، والأُتْرُجّ(٢)، والليمون، والليم، والنَّارِنْج(٣)، والجُمَّيْز(٤)، والتوت الأسود المسمى بالفِرْصاد، والبطيخ الأصفر والأخضر، والخِيار، والقِثّا، والعَجّور، والتِّين، والعنبُ هو أقل ما يوجد من بقية هذه الأنواع، وأما السَّفَرْجل(٥) فيوجد بها، ويُجْلب إليها، وأما الكُمَّثْرى، والتفاح فهما أقل وجوداً من السَّفَرْجل، وبها فواكه أُخَر لا تُعْهد في مصر والشام والعراق، وهي العِنَبا(٦)، والمَهْوَا، والكلج، والكويكا، وايجكي، والبكي، والنغزك، وغير ذلك من الفواكه الفائقة اللذيذة. فأما النَّارجيل(٧)، وهو

= وقطعها مسافاتها واتصالها بنقطة، وانفصالها عن نقطة يتم ما يكون في العالم من الآثار؛ من امتداد الأعمار وقِصَرها، وظهور المياه، وغيضها، وفي النجوم السّيّارة، وفي أَفْلاكها التدبير الأكبر، فاحتذى به، وقال بقوله جماعةٌ نشروا أفكارَه بين الناس، كما أنَّ الصابئة تذهب إلى أنَّ (أوريايس الأول)، و(أوريايس الثاني) أو (هُرْمُس)، أو (أغاثيمون) كانا يَعْلَمَان الغيبَ فاتخذاهما نَبِيَّان لهم، كما تُعَدّ الصابئة من الرُّوحانيين أصحاب الهياكل، وهم فرق، أهمها (الحَرَّانيين) أو (الحِرْنَانِيّة)، و(الكيماريين)، ولكل منهما آراء تختلف مع الأخرى، وقد ظهروا في أول الأمر في شمال العراق، واتخذوا (حَرَّان)، (كاريا القديمة) مركزا لهم، ثم انتشروا بعد ذلك في أماكن أخرى، فانتشر (الكيماريون) في واسط، والبصرة والبطائح، راجع أخبار (الصابئة) مفصلة في «مروج الذهب ١/ ٢٤٦، ٢/ ١٥٢»، و«الملل والنحل ٢/ ٥ وما بعدها»، «دائرة المعارف الإسلامية ١٤/ ٨٩ـ ٩١».

(١) المُزُّ: بين الحلو والحامض «مختار الصحاح ٢٦٠».

(٢) الأُتْرُجّ: شجر معروف بأرض العرب، يعيش قرابة عشرين سنة، يثمر مرة واحدة في السنة، ثمرة طويلة شبيهة بلون الذهب، طَيِّب الرائحة مع شيء من الكراهة، وبزره مثل بزر الكمثرى، منه ما هو تَفِه مائل إلى العذوبة قليلاً، ومنه الحامض القَطّاع «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١/ ١٠».

(٣) النَّارِنْج: شجرةٌ ورقها أَمْلَس لَيِّن، شديد الخضرة، يَحْمل حَمْلاً مُدَوَّراً أملس، في جَوْفه حمَّاض كالأترج «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/ ١٧٤».

(٤) الجُمَّيْز: شجر كبير، وافر الفروع، مستديم الخضرة، تُصنْع من أخشابه السفن، والآلات الزراعية دائمة الاستعمال في الماء، أصله من النُّوبة ونُقِل إلى مصر والشام، يُثْمِر بعد خمسة عشر عاماً، ثلاث مرات في السنة «إحياء التذكرة ٢١٨ـ ٢١٩»، و«الموسوعة العربية الميسرة ٦٤٦».

(٥) السَّفَرْجل: اسمه باللغة اللاتينية، (سيدونيا) نسبة إلى (سيدون) جنوب فرنسا. ينمو في الأرض الطينية، والرملية، الخصبة، قليلة الرطوبة، يُغْرس متقارباً، كيلا تؤثر فيه أشعة الشمس، فَتُحْرِقَه، وتُكْسِبه طعماً قابضاً، يحتاج إلى خِدْمةٍ كثيرة، وماءٍ كثير، حتى لا يَتْلَف، كما عُرف السَّفَرْجَل في الهند، ونُسب إليها، وقيل (سفرجل هندي). «إحياء التذكرة ٣٥٥ـ ٣٥٦».

(٦) العِنَبا: شجر لا ينبت في غير (الهند)، و(الصين)، ذو ساق غليظة، وأغصان، وأوراق شبيه بشجر الجوز، وله ثمر يجمعه أهل الهند، ويكبسونه بالملح، والماء، ويُعْمل بالخل، ويكون طعمه كطعم الزيتون، «نزهة المشتاق ٢٠»، و«الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/ ١٣٥».

(٧) النَّارجِيل: نخلة طويلة، تميل بمرتقيها، حتى تدنيه من الأرض للينها، لها أقناء، في القنو الواحد ثلاثون نارجيلة، وشجر النارجيل يعيش سنوات طويلة، تصل إلى قرنين من الزمن، «نهاية الأرب ١١/ ١٢٩ـ ١٣٠»، و«إحياء التذكرة ١٢٧ـ ١٢٨».

المسمى بالجوز الهندي، فلا شيء يعادله وهو أخضر، مَمْلوء بدهنه. وأما الحُمَر[١]، وهو المسمى بالتَّمر هندي فهو شجر بري ملء الجبال، والنارجيل. والموز بدهلي أقل مما حولها من بلادها، على أنه الموجود الكثير، وأما قصب السكر، فإنه بجميع هذه البلاد كثير ممتهن، ومنه نوع أسود جفا، صُلْب /١٥/ العيدان، وهو أجود للامتصاص لا للاعتصار، وهو مما لا يوجد في سواها، ويعمل من بقية أنواعه، السكر العظيم الكثير الرخيص من السكر النَّبات والسكر المعتاد، ولكنه لا يجمد بل يكون كالسِّميذ الأبيض، وبها الأرز على ما حدثني به الشيخ مبارك بن مجد شاذان، على أحدٍ وعشرين نوعاً، وعندهم اللفت، والجزر، والقَرْع، والباذِنْجان، والهِلْيَوْن[٢]، والزَّنْجَبِيل، وهم يطبخونه إذا كان أخضر، كما يطبخ الجزر، وله طعم طيب، لا يعادله شيء. وبها السِّلْق، والبصل، والفوم، والشَّمَار[٣] والصَّعْتَر[٤] وأنواع الرياحين، من الورد، واللَّيْنُوفَر[٥]، والبَنَفْسَج[٦]، والبان[٧]، وهو الخِلاَف،

(١) الحُمَر: شجرةٌ كبيرةٌ، مثل شجر الجوز، ينبت في اليمن، والهند، والسودان، ورقة مثل ورق اللوبيا، صلب، وثمره غلف دقائق سوداء عليها عسلية تُدْبق باليد، وداخل الغلف حَبٌّ صلب أحمر اللون، فيه حلاوة مع حموضة «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١/ ١٤٠».

(٢) الهِلْيَوْن: نباتٌ مشهور، ينبت، ويُسْتَنبت، ورقه كورق (الشَّبَت) بعضه لا شوك له، بزره مدور أخضر ثم يَسْوَدّ ويَحْمَرّ، في جوفه ثلاث حبات صلبة، وبعضه كثير الشوك تمتد قضبانه على وجه الأرض «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/ ١٩٥»، و«إحياء التذكرة ٦١٦»، ويقول عنه ابن قتيبة في «عيون الأخبار ٣/ ٢٨٩»: «مُدِرٌّ للبول نافع من القُولَنْج».

(٣) الشَّمَار: جاء في «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٢/ ١٣٤ و٣/ ٦٩». أنه هو، الرازيانج، عند أهل (مصر) و(الشام)، ومنه يَنْبت، ومنه ما يُسْتَنبت، ثمره مستدير شبيه (بالكزبرة)، حريف مسخن طيب الرائحة.

(٤) الصَّعْتَر: نبات بَرّي، وبُسْتاني، وجَبَلي، ورقه طويل، ومُدَوَّر، ودقيق، وعريض، ولونه، منه ما هو أسود ويُعْرف بـ(الفارسي)، ومنه ما هو أبيض. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/ ٨٣».

(٥) اللَّيْنُوفَر: أو (النَّيْلُوفَر)، اسمٌ فارسي، معناه: (النيلي الأجنحة)، و(النيلي الأريَاش) ويُعْرف في السِّريانية بـ(كرنب الماء). كما يسميه أهل الهند (نينَوْفَر)، والنَّبْط (نِيلَوفَريا)، والعرب (نيلوفه). يَنْبت في الماء، وساقه ملساء، يطول بحسب عمق الماء، فإذا ساوى سطحه أوْرَق وأزهر، كما ينبت في البَرِّ ويُعرف في مصر بـ(عرائس النيل) وهو كبير الأوراق، متعدد الألوان، أغلبها، أصفر، وأبيض، وأزهاره تتفتح لمطلع الشمس، وعند غروبها تنقبض، وَتُطْبق على النمل فَتُميته، لذا سمى (قاتل النمل)، «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/ ١٨٥»، و«نهاية الأرب ١١/ ٢١٩- ٢٢٠»، و«إحياء التذكرة ٦١٢».

(٦) البَنَفْسَج: فارسي معرَّب من كلمة (بَنَفْشَة)، وهو نباتُ زِينة، ينبت في الأماكن الظليلة، زهره اسمانجوني اللون، طيب الرائحة، معرّق، ملين، من الأدوية الصدرية، «محيط المحيط ٥٦»، و«إحياء التذكرة ١٧٨».

(٧) البان: شجرٌ سَبْطُ القوام لين، منه ما يقارب (الأثل) في ارتفاعه، ومنه قصير دون شجرة (الرّمان)، =

والنَّرْجِس[١]، وهو العَبْهَر وثامر الحنا، وهو (الفاغِيَة)[٢]، وكذلك الشيْرَج[٣]، ومنه وَقِيدهم وأما الزيت فلا يأتيهم إلا جَلَباً، وأما العسل فأكثر من الكثير، وأما الشمع فلا يوجد إلاَّ في دور السلطان، ولا يسمح فيه لأحد.

وما لا يحصى من الدواب السائمة، من الجواميس والأبقار، والأغنام، والمعز ودواجن الطير من الدجاج، والحمام البلدي، والأوز، وهو أقل أنواعه، وأما الدجاج الهندي فيكاد أن يكون كالأوز في عِظَم المقدار. وكل هذا يباع بأرخص الأسعار، واقل الأثمان. وأما السمن واللبن على اختلاف أنواعه فكثير لا يُعبأ به، ولا له قيمة. ويُباع بأسواقها من الأطعمة المُنَوَّعة، كالشَّواء، والأرز، والمطَجّن والمَقْلي، والمنوَّع، والحُلْو المنوعة على خمسة وستين نوعاً، والفُقَّاع[٤]، والأشربة، ما لا يكاد يُرى في مدينة سواها.

وبها من أصحاب الصنائع، للسيوف، والقِسِيّ[٥]، والرِّماح، وأنواع الرماح

= شديد الخضرة له زهر ناعم، يُخَلِّف قروناً مثل قرون (اللوبيا)، في داخلها حبٌّ أكبر من (الحمص) له دهن طيب الرائحة. وقد شُبّه القَدُّ بالبان، لطوله. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١/ ٧٩»، و«محيط المحيط ٦٢».

(١) النَّرْجِس: نباتٌ ورقه شبيه بورق (الكُرّاث) وإن كان أدق منه، وأصفر، ساقه جوفاء ليس لها ورقة، ترتفع عن الأرض أكثر من شبر، زهره أبيض في وسطه شيء أصفر، أجوده ما كان في الجبال، وهو طيب الرائحة، سمي بـ(العَبْهَر) لنعومته، لأنه العَبْهر، الناعم من كل شيء، «المخصص ١١/ ١٩٤، و«الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/ ١٧٩»، و«محيط المحيط ٨٨٧».

(٢) الفاغِيَة: هو الزهَّر، يُقال أفغى النبات، إذا نَوَّر، وقد خُصَّتْ الحِنّاء، باسم الفاغية، فَتُعرف بالفاغية من غير شبه، وهي تخرج جمعاً، ثم تظهر في رؤوسها نوّارة بيضاء صغيرة كأنها زهرة (الكزبرة) وهي نكته حمراء. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/ ١٥٥».

(٣) الشَّبْرَج: نبات، يظهر في المواضع التي لا تُحرث، والقبور، والحيطان القديمة، أحمر اللون، يبلغ طول قضيبه نحو الذراع، ويحيط به في الصيف ورق دقاق، إذا بَرد الجو، جَفّ وانتثر، وتبقى منه بقايا نحو أصله، يخرج في قضبانه زهر صغار في الصيف، ثم بزر صغار، رائحته حادة جداً. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/ ٧٤»، كما يُقال للشيرج دهن (الجلجلان) أي (السمسم) بالسريانية «إحياء التذكرة ٣٦٥ـ ٣٦٨».

(٤) الفُقَّاع: نوع من الشراب، يُعمل من أصناف متعددة؛ من الشعير، والعسل، والسكر، والخبز، مع بعض الأفاوية، كالقرنفل، والفلفل، والسُّنْبل، والكرفس، والنعنع، «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/ ١٦٤».

(٥) القِسّي: جمع (قوس)، والقوس مؤنَّث تصغيرها (قُوَيْس)، وتجمع أيضاً (أَقْوَاس)، و(قِياس) وكل ما انعطف وانحنى، فقد استَقْوسَ، وتَقَوَّس، وقَوَّس. أول من عملها من العرب رجل اسمه (ماسِخَة)، من الأزد، فقيل لها (ماسِخِيّة)، ومن نعوتها الأخرى: الشَّرَيج، والكتوم، والمُرْتَهِشَة، والفرَّاء، والبائِنَة. «كتاب السلاح ٢٢»، و«المخصص ٦/ ٣٧»، و«نهاية الأرب ٦/ ٢٢٢».

والزَّرَد(١)، والصُّوَّاغ(٢)، والزَّرَاكش(٣)، والسَّرَّاجين(٤)، وغير ذلك من أرباب كل صنف مما يَخْتصُّ بالرجال والنساء، وذوي السيوف والأقلام(٥)، وعامة الناس ما لا يُحْصى لهم عدد.

وأما الجمال فقليلة، لا تكون إلا للسلطان، ومن عنده من الخانات والأمراء، والوزراء، وأكابر أرباب الدولة.

وأما الخيل فكثيرة، وهي نوعان: /١٦/ عِرَاب(٦)، وبراذين(٧)، وأكثرها مما لاَ يُحْمَد فعله.

ولهذا، يُجلب إلى الهند من جميع ما جاورها، من بلاد الترك، وتقاد إليها العِرَاب، من البحرين، وبلاد اليمن، والعراق، على أَنَّ في دواخل الهند خَيْلاً عِرَاباً كريمة الأحساب، يُتَغَالى في أثمانها، ولكنها قليلة، ومتى طال مكث الخيل بها انحلت.

وأما البِغَال(٨)، والحُمُر(٩)، فمما يُعاب عندهم ركوبها، ولا يَسْتَحسن فَقِيه، ولا ذو علم ركوب بغلة.

---

(١) الزَّرَد: حِلَق الدرع، والجمع زرود، ويُقال لصانِعها (زَرّاد) «كتاب السلاح ٢٩»، و«المخصص ٧٢٦».

(٢) الصُّوَّاغ: جاء في «لسان العرب ١٠/ ٣٢٥»: والشيء مَصُوغ، والصَّوْغ ما صيغ.

(٣) الزَّرَاكش: لفظ فارسي، يُطلق على النسيج المستخدم فيه الحرير، والذهب الخالص. «الملابس المملوكية ٦١».

(٤) السَّرَّاجين: السَّرَّاج: بائع السُّروج وصانعها، وحرفته السِّراجة، والسِّرَاج المصباح الذي يُسْرج بالليل «لسان العرب ٣/ ١٢٢».

(٥) ذوي السيوف والأقلام: أي أهل الحرب، والإدارة. راجع «التعريف بالمصطلح الشريف ١٠٢، ١٠٦» والفَصْل الممتع الذي كتبه «ابن خلدون في السيف والقلم في المقدمة ٢/ ٦٩٥»، و«الألقاب الإسلامية ٦٩٥».

(٦) عِرَاب: جاء في «لسان العرب ٢/ ٧٩»: «عَرَبِيَّة الفَرَس: عِتْقه وسلامته من الهجنة... وفَرّقوا بين الخيل، والناس، فقالوا في الناس، عَرَب وأَعْرَاب، وفي الخيل عِرَاب، .... والخيل العِراب، خلاف البخاتي، والبراذين»، راجع أيضاً «المخصص ٦/ ١٧٧»، و«محيط المحيط ٥٨٦».

(٧) بَرَاذِين: البراذين من الخيل، ما كان من غير نَتَاج العِرَاب «لسان العرب ١٦/ ١٩٥»، وجاء في «محيط المحيط ٣٤»، أنها التركي من الخيل، وخلافها (العِرَاب).

(٨) البِغَال: البَغْل الحيوان (السحّاج) الذي يُرْكب، والأنثى (بَغْلَة)، والجمع (بِغَال)، والبَغْل أقل سرعة وأقل أهمية من الفرس، «لسان العرب» (١٣/ ٦٣)، وجاء في «محيط المحيط ٤٧»: أنه حيوان أهلي للركوب والحَمْل، أبوه حمار، وأمه فرس، وقيل بالعكس، وقد يُطلب (يطلق) مجاوزاً على كل حيوان أبوه، وأمه مختلفي الجنس.

(٩) الحُمُر: لعله يَقصد «الحمار الوحشي» راجع «لسان العرب ٥/ ١٩١». و«محيط المحيط ١٩٣».

فأما الحمار، فإن ركوبه عندهم مذلَّة كبرة، وعار عظيم، بل ركوب الكل الخيل.

وأما الأثقال، فخاصتهم تحمل على الخيل، وعامتهم تحمل على البقر، يعمل عليها الأُكف[١]، فيحمل عليها، وهي سريعة المشي، ممتدة الخُطى.

وسألت الشيخ مبارك، عن مدينة دِهْلي[٢]، وما هي عليه، وترتيب سلطانها في أحواله، فحدَّثني، أنَّ دِهْلي مدائن[٣] جُمِعَت مدينة، ولكل واحدة اسم معروف، وإنما دِهْلي واحدة منها، وقد صار يُطلق على الجميع اسمها، وهي ممتدة طولاً وعرضاً، يكون دَوْر عمرانها أربعين ميلاً، بناؤها بالحجر، والآجُرّ، وسقوفها بالأخشاب، وأرضها مفروشة بحجر أبيض شبيه بالرخام، ولا يُبنى بها أكثر من طبقتين، وفي بعضها طبقة واحدة، ولا يَفْرش بالرخام، إلا السلطان.

قال الشيخ أبو بكر بن الخلال: هذه دور دِلِّي العتيقة، فأما ما أُضيف عليها فغير ذلك. قال: وجملة ما يُطلق عليه الآن اسم دِلِّي أحد وعشرون مدينة.

وبساتينها على استقامة كل خط اثنا عشر ميلاً من ثلاث جهاتها، فأما الغربي فعاطل لمقاربته جبل لَهَابة.

وفي دهلي ألف مدرسة، وبها مدرسة واحدة للشافعية، وسائرها للحنفية، ونحو سبعين مارَسْتَاناً[٤]، وتُسمى بها دور الشفا وفيها، وفي بلادها من الخَوَانِق[٥]،

---

(١) الأُكُفْ: جاء في «لسان العرب ١٠/ ٣٥١»، الأكاف من المراكب شبه (الرِّحال) و(الأقتاب) كما جاء في «القاموس المحيط ٣/ ١٢٢»، أكاف الحمار، ككتاب، وغُراب، ووكافه بَرْذَعَتُه، وجاء في «محيط المحيط ١٢». الإكاف والوكاف، برذعة الحمار.

(٢) عن (وصف دهلي) راجع «رحلة ابن بطوطة ٤١٥ـ ٤١٨»، و«كتاب تقويم البلدان ٣٥٨ـ ٣٥٩».

(٣) يذكر ابن بطوطة في «رحلته ٤١٥» أن مدينة دِهْلي كانت في الوقت الذي دخلها وهو سنة (٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م) تتكون من أربع مدن متجاورات متصلات، (دِهْلي)، وهي المدينة القديمة، و(سيرى) أو (دار الخلافة)، و(تغلق آباد) و(جهان بناه).

(٤) مارَسَّتان: ويقال: (بيمارسَتْان)، و(بِيَمْرَسْتان)، كلمة فارسية مركبة من لفظين (بيمار) بمعنى مريض، أو عليل، أو مصاب، و(ستان) بمعنى مكان، أو دار، فهي (دار المرضى)، ثم اختصرت في الإستعمال فصارت (مارستان)، كما يُطلق (المارستان) على المكان المعد لإقامة المجانين. «محيط المحيط ٦٤»، و«تاريخ البيمارستانات ٤٤».

(٥) الخَوَانِق: ويُقال لها (الخوانِك)، أو (الخَانْقَاوات)، جمع (خانَقْاه)، أو (خانْكَاه)، وهي كلمة فارسية بمعناها (بيت) وقيل أصلها (خونقاه)، أي البيت الذي يأكل فيه الملك، عُرفت في الإسلام في حدود سنة أربعمائة من الهجرة، وجُعلت لِتَخَلِّي الصوُّفية فيها لعبادة الله تعالى. «الخطط ٢/ ٤١٤»، و«العصر المماليكي ٤٣٣».

والرُّبُط[١]، عدة ألفين مكاناً، وبها الدِّيارات[٢] العظيمة، والأسواق الممتدة، والحَمَّامات الكثيرة، وجميع مياهها من آبار قريبة الْمُسْتَقى أعْمق ما يكون سبعةَ أذرع، عليها السَّواقي، وأما شرب أهلها، فمن ماء المطر في أحواض وسيعة تجتمع /١٧/ فيها الأمطار، كل حوض يكون قُطْره[٣] غَلْوَة[٤] سهم أو أزيد، وبها الجامع المشهور المأذنة، التي قال: إنه ما على بسيط الأرض لها شبيه، في سَمْكها وارتفاعها. قال الشيخ برهان الدين بن الخلال البَزّي الصّوفي: إنَّ علْوُها ستمائة ذراع في الهواء.

قال الشيخ مبارك: وأما قصور السلطان، ومنازله بدِهْلي، فإنها خاصَّة يسكنه، وسكن حريمه، ومقاصير جواريه، وحظاياه[٥] وبيوت خَدَمِه، ومماليكه، لا يسكن معه أحد من الخانات[٦] والأمراء، ولا يكون به أحد منهم، إلا إذا حضروا للخدمة، ثم ينصرف كل واحد إلى بيته. وخدمتهم مَرّتين في كُلِّ نهار، في بُكْرة كُلّ يوم، وبعد العصر منه. وَرُتَب الأمراء على هذه الأنواع، أعلاهم قدراً، الخانات، ثم الملوك، ثم الأمراء، ثم الإصْفَهْسلارية[٧]، ثم الجند.

---

(١) الرُّبُط: جمع رباط، وهي هنا بمعنى بيت الصوفية، ومنزلهم، ولكل قوم دار، والرِّباط دارهم، وللرباط أصله من السُّنَّةِ، إذا اتخذ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لفقراء الصحابة الذين لا يأوون إلى أهل، ولا مال، مكاناً من مسجده يُقِيْمُون فيه، عُرِف هؤلاء بأهل الصُّفَّة. «المصباح المنير ١/ ٢٣١»، و«الخطط ٢/ ٤٢٧».

(٢) الدِّيارات، مفردها (دار)، وهو المحلُّ، يجمع البِنَاءَ، والعَرَصَةَ، كما تأتي بمعنى المدينة. «محيط المحيط ٢٩٨».

(٣) القُطْر: قُطْر الدائرة، الخط المستقيم، والواصِل من جانب الدائرة إلى الجانب الآخر، بحيث يكون وسطه واقِعَاً على المركز. «التعريفات ١٨٦».

(٤) غَلْوة: الغَلْوة، الغاية، وهي رمية سهم أبعد ما يقدر عليه، ويُقال: هي قدر ثلاثمائة ذراع إلى أربعمائة، والجمع غَلْوات. «المصباح ٢/١٠٦».

(٥) حظاياه: القريبات إلى قلبه، ومن لَهُنّ مكانة، وحظ، ومنزلة. راجع «مختار الصحاح ٦٠»، و«محيط المحيط ١٧٨».

(٦) الخانات: الخان لقب تركي، أطلق منذ القرن الأول أو الثاني من الهجرة، على شيوخ الأمراء في قبائل الترك، ثم أُطلق على وُلاة المغول، الذين يخضعون ولو اسْمِيّاً لسيد الأسرة الأعظم، (الخاقان) أو (القان)، ثم لُقِّبَ به السلطان المغول في فارس والروم، وكانت أول معرفة المسلمين بهذا اللقب، عندما دخل خانات التركستان في الإسلام وبدأوا احتكاكهم بالعالم الإسلامي، فالأمير (نصر بن علي) أُطلق عليه هذا اللقب في سِكَّةٍ بتاريخ (٣٩٠هـ/ ٩٩٩م)، «الألقاب الإسلامية ٢٧٤».

(٧) الإصْفهْسَلارية: أو الاسفهسلارية: لقب من ألقاب أرباب السيوف، وكان في الدولة الفاطمية لقباً على صاحب وظيفة تلي وظيفة صاحب الباب، ومعناها (مُقَدّم العسكر)، وهو مركب من لفظين: فارسي، وتركي، (أسْفَه) بالفارسية، بمعنى (المَقَدّم)، و(سَلَار) بالتركية بمعنى (العسكر) «الصبح ٦/ ٧ـ ٨».

وفي خدمته (ثمانون خاناً، أو أزيد)، وعسكره تسعمائة ألف فارس، من هؤلاء من هو بحضرته، ومنهم في سائر البلاد، يجرى عليهم كلهم ديوانه[١]، ويشملهم إحسانه.

وعساكره من الأتراك، والخَطَا[٢]، والفرس، والهند، ومنهم البَهَالوين[٣]، والشُّطَّار[٤]، ومن بقية الأنواع، والأجناس، كلهم بالخيل المُسوَّمة[٥]، والسِّلاح الفائق، والتَّجَمُّل الظاهر.

وغالب الأمراء، والجند تشتغل بالفقه، ويتمذهبون خاصّة، وأهل الهند عامة لأبي حنيفة (رضي الله عنه).

وله ثلاثة آلاف فيل مُحَقَّقة[٦]، تُلَبَّس في الحروب البركصطوانات[٧] الحديد

---

(١) الديوان، موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطة، من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش، والعمال، والديوان في الفارسية اسم (الشياطين)، فَسُمّى الكُتّاب باسمهم، لحذقهم الأمور، ثم سُمّي مكان جلوسهم باسمهم، فقيل: (ديوان)، وهناك وَجْه آخر عن سبب تسميته بهذا الاسم، هو أنّ (كسرى) اطّلعَ ذات يوم على كُتَّاب ديوانه فقال: (ديوانه) أي (مجانين) فَسُمِّيَ موضعهم بهذا الاسم، وَحُذِفَت الهاء تخفيفاً فقيل (ديوان) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من استخدم الديوان في الإسلام «الأحكام السلطانية ١٩٩». راجع أيضاً «المقدمة ٦٧٥ـ ٦٧٩».

(٢) الخَطَا: قبائل أو جماعات تنتمي إلى أصول مغولية، على الأرجح، اصطبغت فيما بعد ببعض الملامح التركية، كانت تستقر في الأطراف الشمالية من بلاد الصين، وفي القرن العاشر الميلادى أسَّسَوا لهم دولةً، عُرفت في المصادر الصيِّنية، باسم دولة أسرة ليا أو (Leao). «العلاقات السياسية. بين دولة الخطا، والدول الإسلامية المعاصرة/ بحث منشور في مجلة كلية العلوم الاجتماعية في العدد الخامس ١٤٠١هـ ص ٤٠».

(٣) البَهَالِوين: لعلها جَمْع (بَهلَوَان)، وهي كلمة فارسية، معناها الشجاع الجريء. «محيط المحيط ٥٩».

(٤) الشُّطَّار: جاء في لسان العرب ٦/ ٧٦: «وشَطَر عن أهله شُطُوراً، وشُطُورَةً، إذا نزح عنهم وتركهم مراغماً، أو مخالفاً، وأعْياهم خُبثاً. والشَّاطر، مأخوذ منه، وقد شَطُرَ شُطُوراً وشَطَارة، وهو الذي أعيا أهله، ومؤدبه خُبْثاً.. وفلان شاطر أي أخذ نحو غير الاستواء، ولذلك قيل له شطر، لأنه تباعد الاستواء. وجاء في كتاب «حكايات الشُّطَّار والعَيَّارين ١٣ـ ١٤»: أنهم جماعة عاشوا على هامش المجمع، وفي سنح الكيان الإجتماعي، وهم ليسوا لصوصاً بالمعنى التقليدي الشّرّير، وإنما متمرّدون سُدَّت في وجوههم السُّبُل الشَّرْعية، أو المشروعة، فلم يجدوا إلا اللصوصية والشَّطَارة، والعِيَارة، وَقَطْع الطريق سبيلاً، للتعبير عن قضيتهم، وأنفسهم، وهم الطوائف الشعبية، التي تزعمت حركات المقاومة في (بغداد)، و(دمشق)، و(القاهرة) ضد الغزاة والمحتلين.

(٥) المُسَوّمَة: «الخيل المُسَوَّمة التي لها سمَة أيّ علامة».

(٦) محققة: أي تستحق أن يُحمل عليها، ويُنتفع بها. راجع «محيط المحيط ١٨٢».

(٧) البركصطوانات: لبوس للخيل عند الحرب، يُقال لها (بركستوانات) مفردها (بركستوان) أو (بركصطون) مصنوعة من الفولاذ، حَلَّت محل التجافيف «نظم دولة سلاطين المماليك ٢/ ٢٦»، «العصر المماليكي ٤١٨».

المذهب، وأما في أوقات السلم فتلبَّس جلال الديباج[1]، والوشي[2]، وأنواع الحرير، وتُزَيّن بالقصور، والأسِرَّةِ المصفحة، وتُشَدّ عليها البروج من الخُشُب المُسَمَّرة، ويتبّوأ بها رجال الهند مقاعد للقتال، ويكون على الفيل من عشرة رجال إلى ستَّةِ رجال، على قدر احتمال الفيل.

وله عشرون ألف مملوك أتراك. قال البزّي: وعشرة آلاف خادم خَصِيّ وألف خِزَنْدار[3]، وألف بَشْمِقدار[4]، وله مائتا ألف عبدٍ رِكابِيّة تلبس السلاح، /١٨/ وتمشي في رِكاب السلطان، وتقاتل رجّاله بين يديه، وليس يستخدم أحدٌ من الخانات، والملوك، والأمراء، والإصفهسلارية أجناداً، تُقْطَع لهم الإقطاعات من قبلهم، كما هو في مصر والشام، بل ليس يُكَلّف الواحد منهم إلا نفسه، وعدّتُه من الجند، استخدامهم إلى السلطان، وأرزاقهم من ديوانه، ويبقى كلما تَعَيّن لذلك الخان، أو الملك أو الأمير، أو الاصفهسلار خاصّ لنفسه.

والحُجَّاب[5]، وأرباب الوظائف، وأصحاب الأشغال، من أرباب السيوف، من

---

(١) الدِّيباج: مُعَرَّب، وهو ثوب سُداه ولحمته ابريسم «المصباح المنير ١/ ٢٠١» وجاء في «الموسوعة العربية الميسرة ٨٢٩»: أنه نسيجٌ من مختلف الأجناس استعمل كثيراً في العصور الوسطى في الشَّرق، لباساً للرجل، وكانت تصنع منه بخاصة كُسَى التشريف.

(٢) الوشي، نقش الثوب، ويكون من كل لون، والواشي الحائك. «محيط المحيط ٩٧١»، و«المعجم الوسيط ٢/ ١٠٣٦».

(٣) خِزَنْدار: الخِزَنْدار، لقبٌ يُطلق على من يقوم على خزانة السلطان، أو الأمير، أو غيرهما، وهو مُرَكّبٌ من لفظين، عربي وهو (خِزَانة)، وهي ما يُخْزن فيها المال، وفارسي وهو (دار) ومعناها (مُمْسِك)، فَحُذِفَت الألف والهاء من (خِزَانة) استثقالاً، فصارت (خِزَنْدار)، ومعناها (مُمْسِك الخَزْنَة). ومُقَدّم الخِزَنْدار، من مُقَدَّمي الألوف. «الصبح ٤/ ٢١، ٥/ ٤٦٣»، و«زبدة كشف الممالیك ١١٤»، و«تاريخ المماليك البحرية ٢٢٠ـ ٢٢٢».

(٤) بَشْمِقدار: البَشْمِقدار، هو الذي يَحمل نَعْلَ السلطان، أو الأمير، وهو مُرَكَّبٌ من لفظين أحدهما (بَشْمَق)، من اللغة التركية، ومعناه (النَّعْل) والثاني (دار) من اللغة الفارسية، ومعناه (مُمْسِك)، فيكون المعنى (مُمْسِك النَّعْلَ) ويذكر القلقشندي روايةً أخرى لِرَسْم الكلمة نقلاً عن صاحب كتاب (الأنوار الضَّويّة في إظهار غَلَطِ الدرّة المضيّة في اللغة التركية) وهو (بَصْمَقدار) لأن الصواب في (النَّعْل) (بَصْمَق). «الصبح ٥/ ٤٥٩».

(٥) الحُجّاب: الحاجب، أمير وظيفته أن يُنْصف بين الأمراء والجند، إما بنفسه، أو بمراجعة نائبه ويقدم إليه من يعرض، ومن يَرِد، وعَرْض الجند وما ناسب ذلك، أول ما عُرِف هذا الاسم في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ـ ٨٦هـ/ ٦٨٤ـ ٧٠٥م)، وكانت مهمة الحاجب إذْ ذاك حَجْب السلطان عن العامة، وإغلاق بابه أو فتحه دونهم في مواقيت معينة «الصبح ٤/ ١٩ـ ٢٠»، و«المقدمة ٦٧١ـ ٦٧٥»، و«حسن المحاضرة ٢/ ١٣١، ١٣٣، ١٣٤».

الخانات، والملوك، والأمراء، لكل رتبة من يناسبها، على مقدارها.

فأما الإصفهسلارية، فلا يؤهّل منهم أحدٌ لقرب السلطان، وإنما يكون منهم نوعُ الولاة، ومن يجرى مجراهم.

والخان، يكون له عشرة آلاف فارس، والملك ألف فارس، والأمير مائة فارس، والإصفهسلارية دون ذلك.

وأما أرزاقهم، فيكون للخانات، والملوك، والأمراء، والإصفهسلارية، بلاد مقرّرة عليهم من الدِّيوان، إن كانت لا تزيد، فإنها لا تنقص، والغالب أن تَجِيء أضعاف ما عبرت(١) به.

ولكل خان لُكَّان، كل لُكٍّ مائة ألف تَنْكة(٢)، كل تَنْكَة ثمانية دراهم(٣)، هذا خاص له، لا يخرج منه لجندي من أجناده شيء، ولكل ملك من ستين ألف تَنْكة إلى خمسين الف تَنْكَة، ولكل أمير من أربعين ألف تَنْكَة إلى ثلاثين ألف تَنْكَة، والإصفهسلارية من عشرين ألف تَنْكَة، وما حولها، وأما الجند فلكل جندي مِن عشرة آلاف تَنْكَة إلى ألف تَنْكة، وأما المماليك السلطانية فلكل مملوك من خمسة آلاف تَنْكَة إلى ألف تَنْكَة، وطعامهم وكساويهم وَعَلِيقِهِم(٤). والجند، والمماليك ليس لهم بلاد، وإنما يأخذون أموالهم نقداً من الخزانة، وأما أولئك(٥) فبلاد تلك غيرها.

قال: والآن إن لم تَزِد متحصلات البلاد المقتطعة لهم عن العَبَر، وإلا فما

---

(١) عبرت: في «مفاتيح العلوم ٥٦»: العَبَر، ثَبْت الصَّدَقات لِكُورَة من الكُور، وعَبْرة سائر الارتفاعات هو، أن يُعْتبر مثلاً ارتفاع السَّنة التي هي أقل رَيْعاً، والسنة التي هي أكثر رَيْعاً، ويُجْمعَان ويؤخذ نصفهما، فتلك العَبْرَة، بعد أن تُعْتَبَر الأسعار وسائر العوارض.
وفي كتاب «العصر المماليكي ٤٥٦»: العَبْرَة، هي «مِقْدَار المساحة، وهي مِقْدَار المربوط من الخراج، أو الأموال على كل اقطاع من الأرض وما يُتَحصل عن كل قرية، من عين أو غَلّة».

(٢) تَنْكَة: نَقْدٌ ذَهَبِيٌ، أو فِضِّيٌ، يُعادل (تُولُة، واحدة) أو (١١) جراماً، و(٦٦٤) ملي جراماً، كما يساوي أيضاً (٥٠) جيتلاً وقد عَرَفت الهند هذا النقد منذ عهد المماليك (٦٠٢ـ ٦٨٩هـ/ ١٢٠٥/ ١٢٩٠م) «نزهة الخواطر ٩/ ٣٧٨، ٣٨١».

(٣) دراهم: الدرهم فارسي معرب «المخصص» (١٢/ ٢٧) والدرهم الشرعي، هو الذي تزن (العشرة) منه (سبعة) مثاقيل من الذهب، والأوقية منه (أربعين) درهماً، وهو على هذا (سبعة أعشار) الدينار، ووزن المثقال من الذهب (اثنتان وسبعون) حبة من الشعير، فالدرهم الذي هو (سبعة أعشاره) (خمسون حبة وخُمْسا حبة) وهي مقادير ثابتة بالإجماع «المقدمة ٢/ ٧٠٣».

(٤) عَلِيقهم: أي طعامهم، راجع «المصباح المنير ٢/ ٧٦» وجاء في «محيط المحيط ٦٢٧». أن (العَلِيق) هو شعير الدَّابة، أو هو ما تُعْلَقه الدابة من الشعير ونحوه.

(٥) أي الخانات، والملوك، والأمراء، والإصفهسلارية.

تنقص، ومنهم من يحصل له قدر عبرته مرتين، وأكثر، وأما العبيد فلكل عبد منهم في كل شهر مَنّان من الحِنْطة، والأرز، طعاماً لهم، وفي كل يوم /١٩/ ثلاثة أسْيار(١) لحم، بما يحتاج إليه، وفي كل شهر عشر تَنْكات بيضاء(٢)، وفي كل سنة أربع كساوى.

ولهذا السلطان دار طِراز(٣)، فيها أربعة آلاف قَزّاز(٤) تَعْمَل الأقمشة المنوعة للخِلَع(٥)، والكساوى، والإطلاقات(٦)، مع ما يُحمل له من قماش الصين، والعراق، والإسكندرية. وهو يُفَرِّق في كل سنة مائتي ألف كسوة كاملة؛ مائة ألف كسوة في الربيع، ومائة ألف كسوة في الخريف، فأما كسَاوَى الربيع فغالبها من القماش الإسكندري، عمل إسكندرية، وأمّا كَسَاوى الخريف، فكلها حرير من عمل دار الطِّراز بدِهْلي، وقماش الصين، والعراق. ويُفَرّق على الخوانِقِ والرُّبط الكَسَاوى. وله أربعة آلاف زَرْكشي، تعمل الزَرَاكِش لباقي الحريم، وتعمَل في مستعملاته(٧)، ولما

---

(١) أسْيَار: واحدة (سَيْر)، وهو من الأوزان الهندية، يساوي (٨٠) تولة، أو (٩٣٣) جراماً، أو (١٢٠) ملي جراماً «نزهة الخواطر ٩/ ٣٨٠».

(٢) أي من النقد الفضي.

(٣) دار طِراز: جاء في «المقدمة ٢/٧٠٨ـ ٧٠٩»: أنّ من أُبُهَّةِ الملك، والسلطان، ومذاهب الدول، أنْ تُرسم أسماؤهم، أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المُعَدَّة للباسهم، إما بالذهب أو بخيوط ملونة غير الذهب، والقصد من ذلك التميز بلابسها، من السلطان فما دونه، وقد كان ملوك العجم يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك وأشكالهم، أو أشكالٍ وصورٍ معينة، ثم اعتاض ملوك الإسلام عن ذلك، بَكَتْبِ أسمائهم، مع كلماتٍ أخرى تجري مجرى الفأل أو السجلات.

(٤) قَزّاز: القزّ «الحرير على الحال التي يكون عليها عندما يُستخرج من الصُّلَّجَةِ، والقَزّازُ، بائع القَزِّ وناسِجُه». «محيط المحيط ٧٣٣»، و«المعجم الوسيط ٢/ ٧٣٢».

(٥) الخِلَع: الخِلْعة، ثوبٌ يَلْبَسُه الحاكِمُ، ويَمْنَحه هديةً بعد أن يَخْلَعه، وهو بمثابة أمان للشخص الذي يخلعه عليه أكثر منه تكريماً له، وتطور مفهوم الخُلْعة في العصر المماليكي، وأصبح هدية شائعة، حتى أنّ موظفي الدولة اعتبروا ذلك حقّاً مكتسباً، كمرتباتهم سواءً بسواء، وقد عقد «القلقشندي» في كتابه «صبح الأعشى ٤/ ٥٢» فصلاً أطلق عليه عنوان (الخُلَع والتَّشَاريف) وضَّح فيه كيف تختلف الخُلَع في أنواعها، وألوانها، ورسومها، حسب طبقات رجال الدولة، والمناسبات والأماكن التي يتم الخَلْع والتشريف فيها وكذلك «المقريزي» في «الخطط ٢/ ٢١٦» ولمزيد من التفصيل حول موضوع (الخُلَع) راجع أيضاً «الملابس المملوكية ١٠١».

(٦) الإطلاقات: هي ما يُقَرِّرُه السلطان لفئةٍ من موظفي الدولة، أو لأسرة من الأسر، أو لأحد أفراد رعيته سواء من أرباب الدولة، أو من غيرهم، من مخصصات نقدية أو عَيْنِيّة، وهي على ثلاث أنواع: إما تَقْرِيرٌ لما قَرَّره غيره ممن سبقه من سلاطين أو ملوك، وإما ابتداء لتقرير ما لَمْ يَكُنْ مقرّراً قبل، وإما زيادة على ما هو مُقَرّر. تفصيل ذلك في «الصبح ١٣/ ٤١».

(٧) مستعملاته: أي الأشياء الخاصة به.

يَخْلعه على أرباب دولته، ويُعْطِي لنسائهم.

ويفرِّق في كل سنة عشرة آلاف فرسٍ عربي من الخيل العِرَاب المُسَوَّمة؛ منها ما هو مُسْرَج مُلْجَم(١)، ومنها ما هو عربي بلا سَرْج ولا لِجَام، والمُسْرَجات والمُلْجَمات على أنواع؛ منها ما هو مُلَبَّس، ومنها ما هو مُحَلّى، ثم إن تلك المُلَبّسات، والمُحَلّيَات، منها ما هو بالذّهب، ومنها ما هو بالفضة. فأما ما يُعْطِي من الخيل البراذين، فإنه بلا حساب، يُعْطي جُشَارات(٢)، ويفرّق مئينا مئينا، وهو على كثرة الخيل ببلاده، وكثرة ما يُجْلَب إليه يتطلبها من كل قطر، ويبذل فيها أكثر الأثمان، لكثرة ما يُعْطي ويُطْلِق، وهي مع هذا غالية الثمن، مُرْبحة المكاسب لِمَن يتاجر فيها، لكثرة المكاسب، والعساكر، وجمهرة الخَلْق.

وحدثني علي بن منصور العُقيلي، من أمراء عَرَب البحرين وهم ممن يَجْلِبون الخيلَ إلى هذا السلطان، أن لأهل هذه البلاد علامة في الفرس يعرفونها بينهم، متى ما رأوها في فرس، اشتروه بما عسى يبلغ ثمنه.

ولهذا السلطان نائب من الخانات يُسمى (إمريت)، إقطاعه يكون قدر إقليم عظيم نحو العراق، ووزير، وإقطاعه يكون قدر إقليم نحو العراق، وله أربعة نواب، يُسَمى كل واحد منهم (شق)، ولكل منهم من أربعين ألف تَنْكَة إلى عشرين ألف تُنْكة، وله أربعة /٢٠/ (دبيران) أي كتاب سِرّ - لكل واحد منهم مدينة من المدن البَنَادر العظيمةِ الدَّخْلِ، ولكل واحدٍ منهم بقدر ثلاثمائة كاتب أصغر من فيهم، وأضيق رزقاً له عشرة آلاف تَنْكَة، وأما أكابرهم فلهم قرى وضياع، وفيهم من له خمسون قرية، ولصدرِجَهَان، وهو اسم قاضي القضاء، وهو في وقتنا كمال الدين بن البرهان(٣)،

(١) مُلْجَم: اللّجَام فارسي مُعَرَّب، وهو حبلٌ، أو عصا، يدخل في فم الدّابة، ويُلْزَق إلى قفاه. «المخصص ٦/ ١٨٨».

(٢) جُشَارات: الجُشَار، الماشية، ويُقْصد بها أحياناً الخيول والبقر، التي تُساق مع الجيش، راجع «محيط المحيط ١١٠»، و«النظم الإقطاعية ٤٧٧».

(٣) كمال الدين محمد بن البرهان الغزنوي، الملقب بـ«صدر جهان»، الفقيه، الإمام العلامة، قاضي القضاة، بالهند والسِّند، ذكره «ابن بطوطة» في «رحلته» أثناء حديثه عن فتح مدينة دِهْلي سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م، ومن تداولها من الملوك، حيث نقل عنه خبر تلك المدينة، كما ذكر أنه تلقى منه معظم أخبار سلاطين الهند، ما عدا محمد تغلق شاه، حيث اعتمد في نقل أخباره على المشاهدة، والمعاينة عند زيارته لبلاده ٤٢١، ٤٤١ وذكر صاحب «نزهة الخواطر ٢/ ١٢٩»: أنه الشيخ الفاضل محمد بن البرهان، القاضي كمال الدين الهانسوي، أحد كبار الفقهاء الحنفية، قرأ العلم على خاله الشيخ العلامة فخر الدين الهانسوي، برع في العلم، وتأهل للفتوى، والتدريس، ولي القضاء، حتى صار =

عشر قرى، يكون متحصلها قريب ستين ألف تَنْكَة، ويُسمى صدر الإسيلام، وهو أكبر نوَّاب الحُكْم بالقضاء، ولشيخ الإسلام، وهو شيخ الشيوخ مثله. وللمحتسب قرية يكون متحصلها نحو ثمانية آلاف تَنْكة.

وله ألف طبيب ومائتا طبيب وعشرة آلاف بَزْدَار[١] تركب الخيل، وتحمل الطيور المُعَلّمة للصيد، وثلاثة آلاف سَوّاق تسوق لتحصيل الصَّيد، وخمسمائة نديم، وألفان ومائتا نفرٍ من الملاهي، غير مماليكه الملاهي؛ وهم ألف مملوك، برسم تعليم الغنا خاصَّة، وألف شاعر من اللغات الثلاثة؛ العربية، والفارسية، والهندية، من ذوي الذوق اللطيف، يجري على هؤلاء كلهم ديوانه، وتدر عليهم مواهبه. ومتى بلغه أَنَّ أحداً من ملاهيه غَنّى لأحد قتله. وسألته عما لهؤلاء من الأرزاق ؟ فقال: لا أعلم مِن أرزاق هؤلاء إلاَّ ما للندماء، فإنَّ لبعضهم قريتين، ولبعضهم قرية، ولكل واحد منهم، من أربعين ألف تَنْكة، إلى ثلاثين ألف تَنْكة، إلى عشرين ألف تَنْكَة، على مقاديرهم من الخِلع والكَسَاوى، والإفْتِقَادات[٢].

قال الشيخ مبارك: ويُمَدّ[٣] لهذا السلطان السِّمَاط أوقات الخدم في طرفي النهار مرتين في كل يوم، ويَطْعم منه عشرون ألف نفر مثل: الخانات، والملوك، والأمراء، والإصْفَهْسلارية، وأعيان الجند، وأما طعامه الخاص فيحضر معه عليه الفقهاء؛ مائتا

= أقضى قضاة الهند في عهد تغلق شاه، واستمر في هذا المنصب حتى آخر عهد (محمد تغلق شاه) الذي كان يقربه إلى نفسه، رغم غَشَمه وجوره.

(١) بَزْدَار: أو (البَازْدَار)، هو الذي يحمل الطيور الجوارح المعدّة للصيد على يده (والباز) أحد أنواع الجوارح، وخُصّ بإضافته إلى الباز دون غيره، لأنه هو المتعارف بين الملوك في الزمن القديم «الصبح ٥/ ٤٦٩».

(٢) الإفتقادات: جاء في «محيط المحيط ٦٩٧»: الفقد مصدرٌ، ونبات، أو شراب من زبيب، أو عسل.

(٣) قارن بـ«الصبح ٥/ ٩٥»، وقد ذكر (أن الخدمة، خدمتان، أحدهما الخدمة اليومية، فإنه في كل يوم يُمَدّ الخوان في قصر السلطان، ويأكل منه عشرون ألف نفر من الخانات..الخ. والثانية الجُمَعِيَّة، حيث يجلس يوم الثلاثاء من كل أسبوع جلوساً عاماً للناس في ساحة عظيمة). وكذلك في «رحلة ابن بطوطة ٤٥٠ ـ ٤٥١»، وصف لترتيب طعام السلطان ذكر فيه، أنه على صنفين، طعامٌ خاصٌّ، وطعامٌ عامٌّ، أما الطعام الخاص فيحضره الأمراء، والخواص، وأمير الحُجَّاب ابن عم السلطان، وعماد الملك (سَرتَّيز)، وأمير المجلس، وغيرهم ممن يرى السلطان تكريمه من كبار النَّاس. وقد حضر ابن بطوطة طعام العام فقد وصف كيفية تقديمه، وكيف تُسَجّل أسماء من يحضره ونوعه، وكيفية ترتيب جلوس أرباب الدولة وعامَّة الناس على السِّماط. وبما يُبْدأ به من الشراب، وكيف يُكْتَب جميع ما يحتويه الطعام أمام كل إنسان، ثم ما هي أنواع الأشربة بعد الفراغ من الطعام، كما ذكر أنَّ موعد تناول الطعام مرتين في اليوم، قبل الظهر، وبعد العصر.

فقيه في الغذاء والعَشَاء، ليأكلوا معه، ويبحثوا بين يديه.

قال الشيخ أبو بكر بن الخلال البزي: سألت طَباخ السلطان، كم يُذبح في مطابخه كل يوم؟ فقال: يُذبح ألفان وخمسمائة رأس من البقر، وألفا رأس من الغنم، غير الخيل /٢١/ المسمنة، وأنواع الطير.

قال الشيخ مبارك: ولا يحضر مجلس هذا السلطان من الجند، إلا الأعيان، ومن دعته ضرورة إلى الحضور؛ لكثرة عددهم، وكذلك مجالسة الخاصه، لا يحضر بها جميع أرباب الخدم من الندماء والمغاني إلا بالنُّوب، وكذلك أرباب الوظائف مثل: الدَّبَيْران والأطباء ومن يجري مجراهم لا يحضرون إلاّ بالنُّوب، وأما الشعراء فلحضورهم أوقات مخصوصة في السنة، مثل: العيدين، والمواسم، ودخول شهر رمضان، وعندما يتجدد نصره على أعداء، أو فتوح من الفتوحات، أو غير ذلك مما تُهَنّى به السلاطين، أو يُتَعرض إلى مدحهم فيه.

وأمور الجند خاصّة، بل الناس عامة إلى (أَمْريتّ)، وأمور الفقهاء والعلماء القاطنين، والواردين كلها إلى (صدرجهان)، وأمور الفقراء القاطنين، والواردين إلى (شيخ الإسلام)، وأمور عامة الواردين، والوافدين، والأدباء، والشعراء القاطنين والواردين إلى (الدبيران)، وهم كُتَّاب السرّ.

وحدّثني قاضي القضاة، أبو محمد الحسن بن محمد الغوري الحنفي[1]، أن السلطان محمد بن طغلق شاه، كان قد جَهّزَ بيغصان، أحد كتّاب سِرِّه إلى جهة السلطان أبي سعيد[2] رسولاً وبعث معه ألف ألف تَنْكة، ليتصدق بها في المشاهِد،

---

(١) حسام الدين، الحسن بن محمد الغوري، ولي قضاء الحنفية في مصر سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م ثم عُزل عنه سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م، فوصل إلى حلب في ذي الحجة سنة ٧٤٢هـ وافداً من بغداد، ومنفياً من القاهرة؛ بسبب ما اعتمده في الأحكام، ولمعاضدته لقوصون، ولسوء سيرته.
ترجمته في: تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥، والسلوك ج٢/ ق٣/ ٦١١ ـ ٦١٣ وحسن المحاضرة ٢/ ١٨٤.

(٢) القان، أبو سعيد بن خَرَبَنْده بن أرغون بن أبغا بن هولاكو المُغلي، كان يكتب الخط الجيد المنسوب، ويجيد ضرب العود، وفيه رأفة وديانة، وقلة شر، استقر في السلطة بعد وفاة والده خَرَبَنده سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦م وقيل في أول جمادى الأولى سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م بمدينة السُّلْطانية قرب جبال كيلان وكان عمره إحدى عشرة سنة. خضعت له العراق، والجزيرة، وأذربيجان، وخراسان وأطراف ممالك ما وراء النهر، توفي في الأزد سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م بعد عشرين سنة من الحكم ونُقل إلى مدينة السلطانية ودُفن فيها.
ترجمته في: ذيول العبر ١٠٤ ـ ١٠٥ وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨، ٤٤٤ وصبح الأعشى ٤/ ٣٥٨، والنجوم الزاهرة ٩/ ٣٠٩، وقد جاء اسمه (بوسعيد).

بالكوفة، والعراق، وتلك الآفاق، وكان هذا بيغصان مُخَبّث النّيّة، فجمع أَحْوَاله عازماً على أنَّه لا يرجع إلى حضرة مُرْسله، وصادف وصوله وفاة أبي سعيد، فتمكن مما قصده، وحضر إلى بغداد، ومعه نحو خمسمائة فرس له ولأصحابه، ثم تَوجّه إلى دمشق. قال: ثم بلغني أنه عاد منها إلى العراق، وأقام ببغداد، واستوطنها.

قلت: وقد حدثني بحال هذا، الفاضل نظام الدين، أبو الفضائل يحيى بن الحكيم، وقال لي: إنه رآه بدمشق لكنه لم يذكر مبلغ هذه الصَّدَقة وكذا حكى لي عنه [السُّبْكي][1]، والمُلْتاني، والبَرّي وإنْ تخالفت ألفاظهم، فمعناها واحد.

وقال كل منهم: إن هذا بيغصان من الفضلاء الأعيان والدَّيِّنة[2] الأخيار.

قال الشيخ أبو بكر البزي[3]: ـ وهذا السلطان ترعد الفرائص لمهابته وتتزلزل الأرض لموكبه، وهو كثير التّصدِّي /٣٢/ لأُمور مملكته، وهو يجلس بنفسه لإنصاف رعيته.

---

(١) السُّبكي: أكثر من واحد عاصر ابن فضل الله العمري، لُقِّب بالسُّبكي؛ منهم:
القاضي تقي الدين، أبو الفتح، محمد بن عبد اللطيف السبكي ولد في دمشق ١٧ ربيع الآخر سنة ٧٠٥/ ١٣٠٥م وتوفي في يوم السبت ١٨ ذي القعدة سنة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م، وتاج الدين، عبد الوهاب بن تقي الدين علي السبكي. (٧٢٧ ـ ٧٧١هـ/ ١٣٢٦ ـ ١٣٦٩م)، وبدر الدين أبو المعالي، محمد بن محمد بن عبد اللطيف الشافعي السُّبكي ٧٣٦ ـ ٧٧١هـ/ ١٣٣٥ ـ ١٣٦٩م)، وكمال الدين أبو البركات السبكي الشافعي المتوفى سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٠٧ ـ ١٣٧٤م، ومحمد بن عبد البر بن يحيى بن علي السبكي (٧٠٧ ـ ٧٧٧هـ/ ١٣٠٧ ـ ١٣٧٥م)، وولي الدين، أبو ذر، عبد الله بن أبي البقاء بهاء الدين محمد بن عبد البر بن يحيى بن تمام السبُّكي. ولد في مصر، في جمادى الآخرة سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م، أحضر على زهرة بنت الختني، وأسمع على محمد بن غالي، ويحيى بن فضل الله، وأبي نعيم الأسعردي، حفظ الحاوي، ناب في الحُكْم عن قريبه تاج الدين السبكي، ثم عن أبيه، استقل بالحكم في دمشق بعد موت أبيه، له نظم حسن، وكان قد باشر توقيع الدَّست. توفي في سابع شوال سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م بدمشق. ولعل سماعه على والد العمري (يحيى بن فضل الله) وعمله في الدّست. يرجح لدينا أنه هو المَعْني هنا.
ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٣٩٨، والنجوم الزاهرة ١١/ ٢٩٨».

(٢) الدَّيِّنة: جاء في «لسان العرب ١٧/ ٢٧» يقال: دان بكذا ديانة، وتَدَيّن به فهو دَيِّن، ومُتَدَيِّن. كما جاء في «المصباح المنير ١/ ٢٢٠»، دان بالإسلام دِيناً، بالكسر؛ تعبد به، وتَدَيِّن به، كذلك فهو دَيِّن، مثل: ساد فهو سَيِّد.
وجاء في «محيط المحيط ٣٠٢» الدَّين، صاحب الدين، والمتمسك به.

(٣) راجع ما ذكر ابن بطوطة في رحلته عن قوة هذا السلطان، وحثه على تطبيق شعائر الدين، وحفظ دولته، وإنصافه للمظلومين (الرحلة ٤٤١، ٤٦٩، ٤٧٠).

قال خواجا[١] أحمد بن خواجا عمر بن مسافر[٢]، فيما حكاه عنه: إنه يجلس لقراءة قِصَص الناس عليه جلوساً عاماً، ولا يدخل عليه من معه شيء من السلاح، حتى ولا السكين، إلا كاتب السرّ لا غير، والسلطان عنده سلاح كامل، حتى التّركاش[٣]، والقوس، والنّشّاب[٤]؛ حيث قعد لا يفارقه سلاحه. قال: وهذا دأبه، دائماً أبداً[٥].

وأما ركوب هذا السلطان، فإنه يختلف؛ تارة يكون للحرب، وتارة يكون للانتقال في دِهْلي من مكان إلى مكان، وتارة يكون في قصوره، وأما إذا ركب إلى الحرب، فالجبال سائرة، والرمال سائلة، والبحار تتدفق، والبروق تلمع، وأمور تعتقد كذبها العيان، ويعتقل عن وصفها اللسان، وعن الفيلة من الأبراج مدينة، أو قلعة حصينة، ولا يَرَى الطَّرفُ إلا النَّقْعَ المُثار، ودُجَى ليل ممتد على النهار. وشعار السلطان أعلام سود[٦] في أوساطها تِنِّينٌ[٧] عظيم من الذهب، ولا يحمل أحد في الأعلام سواداً إلاَّ له خاصة، وفي الميمنة له أعلام سود، وفي الميسرة أعلام

(١) خَوَاجا: لفظ فارسي من ألقاب أكابر التجار، ومعناه السيد، ونسبة المبالغة إليه (خَواجَكِّي) «صبح الأعشى ٦/ ١٣»، جاء في «محيط المحيط ٢٥٩»: أنها كلمة تجمل، يُلقب بها التجار ونظائرهم، أعجمية بمعنى معلم.

(٢) عمر بن مسافر الخواجا ركن الدين أستاذ الأمير شيخو المتوفى في شعبان سنة ٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م، وغيره من المماليك العمرية. توفي في ربيع الآخر سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م، وذكره المقريزي في أحداث سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م عندما وفد مع صاحب حصن كيفا على الأمير شيخو في مصر، بعد غيبة طويلة، فَسُرّ به، لأنه هو الذي جلبه من بلاده، ونُسب إليه، فقيل: شيخو العمري «السلوك ٢/ ٣/ ٨١٥، ٩٠٦». «أيمن السيد».

(٣) التِّركاش: هو الكنانة أو الجعبة التي توضع فيها النَّشّاب، «كتاب السلاح ٣١، والمخصص ٦/ ٥٦٩، و«العصر المماليكي ٤٢٣» .

(٤) النَّشّاب: هو ما يُرْمى به عن، القيسي (الفارسية)، وفي المقابل النيل، ما يرمى به عن القِسِي (العربية) «الصبح ٢/ ١٤٢» .

(٥) كل هذه الاحتياطات، اتخذها (محمد طغلق شاه)، بسبب سياسة القمع والشدة التي مارسها مع أفراد رعيته فهو في قلق وخوف دائم من انتقامهم منه.

(٦) لعل اتخاذ السلطان (محمد تغلق شاه) السواد شعاراً، له دلالته في ارتباطه وحبه للعباسيين.

(٧) تنين: جاء في «محيط المحيط ٧٤»: التنين الحوت والحية العظيمة، وبياضٌ خفيٌ في السماء، يكون جسده في ستة بروج وذنبه في البرج السابع، دقيق أسود فيه التواء، وهو يتنقل تنقل الكواكب الجواري.
كما جاء في «الموسوعة العربية الميسرة ٥٥٢»: ذكر في الأساطير بأنه حيوان يجمع بين الزواحف والطير، له مخالب أسد، وأجنحة نسر، وذنب أفعى، كثيراً ما يتخذ شعاراً، أو رمزاً قومياً .

حُمْر[١]، وفيها التِّنّينان الذهب، وأما بقية الأمراء، فكل واحد يحمل ما يناسبه.

وأما ما يُدَقُّ للسلطان من الرَّهْجِيّات[٢] في الإقامة، والسفر، فإنه يدق له مثل الإسكندر ذي القرنين[٣]، وهو مائتا حمل نَقّارات[٤]، وأربعون حملاً من الكوسات[٥] الكبار، وعشرون بوقاً[٦]، وعشرة صُنُوج[٧]، وتدق له النّوب

(١) إذا استطعنا أن نعلل سبب اتخاذ السلطان (محمد تغلق شاه) السواد شعاراً له، وهو الشعار الذي اتخذه العباسيون، فإننا لا نملك دليلاً واضحاً على سبب ظهور الأعلام الحُمر في ميسرته؛ هل مجرد تمييز لها عن الميمنة دون دلالة سياسة معينة؟ أم أن لها مدلولها السياسي؟ ويزيد الأمر غموضاً أن الأعلام الحمر ظهرت شعاراً لبعض فرق جيش الخليفة الأموي «مروان بن محمد» (١٢٧ ـ ١٣٢هـ/ ٧٤٤ ـ ٧٤٩م)، ثم بعد قيام الدولة العباسية سنة (١٣٢هـ) رفعت الرايات الحمر شعاراً لبعض الثائرين على العباسيين، أمثال (العباس بن محمد بن عبد الله السفياني) سنة ١٣٢هـ، و(ومسلمة بن يعقوب بن علي المرواني) زعيم القيسية سنة (١٩٥هـ/ ٨١٠م) بل إن (الخوارج) رفعوا الرايات الحمر شعاراً لهم في حروبهم مع العباسيين.
للوقوف على الألوان ودلالتها السياسية في العصر العباسي، راجع كتاب «بحوث في التاريخ العباسي لفاروق عمر ٢٤٢ ـ ٢٥٩».

(٢) الرَّهجيات: رَهْج، اسم ضرب في الإيقاعات الموسيقية، زمان دوره الأعظم، (٢٢ من ٤)، وهو من الإيقاعات المركبة بالتوصيل من أدوار صغار. «الموسوعة الميسرة ٨٨٢».

(٣) الإسكندر ذو القرنين: هو الإسكندر بن فيلفوس اليوناني، من أهل (مقدونية) استولى على جميع (بلاد الروم)، وملك (دارا)، و(العراق)، و(الشام)، و(مصر)، و(الجزيرة)، ثم استولى على (فارس)، وهدم بيوت النار، قتل (الهرابذة)، وأحرق كتبهم، كما فتح (الهند)، بعد قتل ملكها، وخرّب بيوت أصنامه، وصالح ملك (الصين)، وملك (التبت)، وسار باتجاه الشمال، وملك البلاد الواقعة في ذلك الاتجاه ودانت له مختلف الأمم، وبلغ ديار يأجوج ومأجوج، وقد اختلفت الأقوال حولهم، وأقربها إلى الصحة أنهم نوع من الترك لهم قوة وَمَنَعَة، فشكى له أهل تلك البلاد من فسادهم. فبنى لهم السد كما جاء بيانه في سورة الكهف الآية ٨٣ حتى الآية ٩٨. ثم رجع إلى العراق فمات في طريقه في (شهرزور) بعلة الخوانيق، وكان عمره ستاً وثلاثين سنة، ودفن في تابوت من ذهب مرصّع بالجوهر، وطلي بالصَّبْر، لئلا يتغير، وحُمل إلى أمه في الإسكندرية، وكانت مدة ملكه أربع عشرة سنة. «الكامل في التاريخ ١/ ٢٨٢ ـ ٢٩١».

(٤) نقارات: مفرده (نقارة)، وهي عند (المولَّدين) شبه الدَّن؛ من الجلد، يُضرب عليها. «محيط المحيط ٩١١» و«الفنون الجميلة ٣٤٤».

(٥) الكوسات: صنوجات من نحاس، تشبه الترس الصغير، يُدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص. «الصبح ٤/ ٩».

(٦) بوقا: وهو ما يُنفخ فيها لإعلان النَّفير في العسكر، وإرهاب الأعداء، بسبب ما تصدره من صوت. «التعريف ٢٧٧».

(٧) الصَّنُوج: آلات نحاسية يُضرب بعضها على بعض. «الصبح ٤/ ١٣»، وجاء في «محيط المحيط ٥٢٠»، أنَّ (الصنّج) «صحيفة مدّورة من النحاس، يُضرب بها على الأخرى معرَّب (سنج) بالفارسية جمعها (صُنُوج)، ويقال، لما يجعل في إطار الدّف من الهنات المدوَّرة (صُنُوج) أيضاً، وهذا مما =

الخمس[١] أيضاً، ويحمل معه ما لا يحصى من الخزائن وغير ذلك، ما لا يكاد يعد من الجنائب[٢].

وأما في الصيد[٣]، فإنه يخرج في خف لا يكون معه أكثر من مائة ألف فارس ومائتي فيل، ويحمل معه أربعة قصور خشب على ثمان مائة جمل، كل قصر على مائتي جمل مُلَبّسة جميعها ستور حرير سود مذهبة، وكل قصر طبقتان، غير الخيم، والخَرْكاوات[٤].

وأمّا في الانتقال من مكان إلى مكان للتنزه، أو ما هذا سبيله، فيكون معه نحو ثلاثين ألف فارس، وهذه العدة من الفيلة، وألف جنيب مُسْرجَة مُلْجَمة، ما بين مُلَبّس بالذهب ومُحَلًّى /٢٣/، ومُطَوّق، ومنها المُرَصّع بالجواهر، واليواقيت.

وأمّا ركوبه في قصوره، فقال لي الشيخ محمد الخُجْنَدي[٥]، وكان ممن دخل دِهْلي واستخدم في الجند بها: إنَّه رآه، وقد خرج من قصر إلى آخر، وهو راكب، وعلى رأسه الجِتْر[٦]، والسِّلاح دَارِيّة وراءه، محمولاً بأيديهم السلاح، وحوله قريب

= تعرفه العرب، (جك) بالفارسية، كما جاء في «الموسوعة العربية الميسرة ١١٣٢» إنها آلة قديمة، من آلات الإيقاع الموسيقي، تُصنع من النحاس الأصفر الرّقيق على هيئة لوحين مستديرين، قطر كل منهما (٣٠سم) تقريباً، يمكن أن يُضرب بأحدهما فوق الآخر. وتستعمل الفرق العسكرية هذه الآلة في الوقت الحاضر، وتُسمى الكاسات، كما تستخدم في الكنائس.

(١) المقصود، بالنّوب الخمس، أوقات تغيير تناوب الوقوف لحراسة السلطان، وهي: الظهر، والعصر، والعشاء، ونصف الليل، وعند الصباح. «العصر المماليكي ٤٨٢».

(٢) الجنائب: جاء في «مشارق الأنوار ١/ ١٥٥»: «والجنب أن يجنب مع الفرس الذي يسابق عليه فرس آخر، أي يُقاد بغير راكب، حتى إذا دنا من الغاية تحمل راكبه على الفرس المجنوب ليسبق، يريد لجامه وجريه بغير راكب»

كما جاء في «لسان العرب ١/ ٢٦٨»: «وفرس طوع الجناب وطوع الجنب، إذا كان سلس القياد، أي إذا جُنِب كان سهلاً منقاداً».

(٣) تحدث (ابن بطوطة)، عن صفة خروج السلطان للصيد، راجع: «الرحلة ٥١٧ ـ ٥١٩».

(٤) الخَرْكاوات: الخَرْكاه، «بيت من خشب، مصنوع على هيئة مخصوصة، ويَغَشَّ بالجوخ، ونحوه. تُحْمل في السفر، لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد «الصبح ٢/ ١٣٨».

(٥) هو، «محمد الخُجْنَدي شمس الدين، نزيل المدينة، كان صالحاً، عابداً، مواظباً على الصف الأول، منقطعاً عن الناس، يقطع الليل بالذكر، ويُحكى عنه في تكثير الطعام عجائب، أرخ ابن فرحون وفاته سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م

ترجمته في: الدرر الكامنة ٥/ ٨٥.

(٦) الجِتْر: يقول عنه ابن بطوطة في «الرحلة ٤٣٧»: والسلطان هنالك، يُعرف بالشَّطْر (جِتْر)، الذي يُرفع فوق رأسه، وهو الذي يُسمى بديار مصر (القبة، والطَّير) ويُرفع بها في الأعياد، وأما بالهند، والصين، فلا يفارق السلطان في سفر ولا حضر.

=

اثني عشر ألف مملوك جميعهم مشاة، ليس فيهم راكب إلا حامل الجِتْر، والسّلاح دَارِيه[١]. والجَمَدارية[٢]؛ حملة القماش. وقال لي الشيخ مبارك: إن هذا السلطان، يَحْمل على رأسه، حيث يركب، الجِتْر، فأما في خروجه إلى الحروب، والأسفار الطويلة، فإنه يحمل على رأسه سبعة جِتورة، منها اثنان مرصعان، ليس لهما قيمة، ولدسته، من الفخامة، والعَظَمة، والقوانين الشَّاهِنْشَاهية[٣]، والأوضاع السلطانية، ما لم يكن مثله، إلا للإسكندر ذي القرنين، أو لِمَلك شاه[٤] بن ألب أرسلان، وأما الخانات والملوك والأمراء، فإنه لا يركب أحد منهم في السَّفَر والحَضَر، إلا بالأعلام، وأكثر ما يحمل الخان، تسعة أعلام.

وأقل ما يحمل الأمير ثلاثة، وأكثر ما يَجُرّ الخان في الحضرة عشرة جنائب، وأكثر ما يجر الأمير في الحضر جنيبان. فأما في الأسفار فمهما وصلت قدرة كل واحد منهم، ووسعة صدره وكرمه. مع أنهم إذا حضروا باب السلطان تضاءلوا، لطمس شمسهِ كَواكِبَهم، ولَطْم بحرِه سَحَائِبَهم.

= ويقول القلقشندي في «الصبح ٤/ ٧ ـ ٨»، : «المِظَلّة، ويعبر عنها بـ (الجِتْر)، بجيم مكسورة، قد تبدل شيناً معجمة، وتاء مثناة فوق، وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، على أعلاها طائر من فضة، مطلية بالذهب، تُحمل على رأسه في العيدين، وهي من بقايا الدولة الفاطمية».

(١) السلاح دارية: لقب لحملة سلاح السلطان في المجامع الجامعة، والمقدم عليهم من المماليك السلطانية، وهو المتحدث في (السلاح خاناه) السلطانية، وما يُستعمل لها، أو يُقَدم إليها، ولا يكون إلا واحداً من الأمراء مقدمي الألف، و(السلاح دار) مكون من لفظين: (سلاح)، عربي و(دار) فارسي، بمعنى ممسك، فيكون المعنى (ممسك السلاح) «الصبح ٤/ ١٨ و٥/ ٤٦٢»، و«زبدة كشف الممالك ١١٤».

(٢) الجَمَدارية: الجَمَدار «هو الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه، وأصله (جامادار) فحُذفت الألف بعد الجيم، وبعد الميم استثقالاً، وقيل: (جَمَدار)، وهو في الأصل مركب من لفظين فارسيين، أحدهما (جاما)، ومعناه الثوب، والثاني (دار) ومعناها ممسك، فيكون المعنى (ممسك الثوب) «الصبح ٥/ ٤٥٩). وجاء في «حسن المحاضرة ٢/ ١٣٤» أنَّ (الجمدار) هو «ماسك البقجة التي للقماش».

(٣) الشَّاهِنْشَّاهية: شاهِنْشاه، لقب من ألقاب ملوك الفرس، في عهد الدولة الساسانية، ويعني (ملك الملوك)، وقد جاء هذا اللقب، نتيجة إطلاق لقب «ملك» على أفراد الطبقة الأولى في الدولة الساسانية؛ وهم الأفراد الذين يحكمون في أطراف الدولة وحكام الإمارات التي كانت خاضعة للساسانيين أمثال: الأمراء العرب في (الحيرة). وهذا ما سَوّغ أن يكون لقب رأس الدولة الساسانية «ملك الملوك» (شاهِنْشاه). «الصبح ٦/ ١٦» و«إيران في عهد الساسانيين ٨٧ ـ ٨٨» .

(٤) هو السلطان السلجوقي، جلال الدولة أبو الفتح مَلَكْشاه بن ألب أرسلان، جلس على عرش السلطة السلجوقية، بعد وفاة والده ألب أرسلان سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م في عهد الخليفة العباسي «القائم بأمر الله ٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ/ ١٠٣٠ ـ ١٠٧٤م» =

وهذا السلطان مع هذا ذو بِرٍّ، وإحسان، وتواضع لله تعالىٰ. حدثني أبو الصفا عمر بن إسحاق الشِّبْلي، أنه رآه، وقد نزل إلى جنازة فقيرٍ صالح مات، وحمل نَعْشَه على عنقه.

وله فضيلة جَمَّة؛ يحفظ كتاب الله تعالىٰ، وكتاب الهداية(١) في مذهب الإمام أبي حنيفة(٢) رضي الله عنه، ويجيد في المعقول(٣)، ويكتب خَطّاً حَسَناً، وله يد ممهدة(٤) في الرياضة وتأديب النفس والأدب، ويقول الشعر وينظمه، ويستنشده، ويفهم معانيه، ويُباحث العلماء، ويناظر الفضلاء، ويؤاخذ خصوصاً الشعراء بالفارسية، فإنه عالق بأهدابها، عارف بشعابها، قال: ولقد سمعته يبحث في معنى تقدم الأمس على اليوم، من أي قبيل هو ؟! لأنهم قالوا: إنَّ التقدم، إما أن يكون بالزمان، أو بالرتبة، أو بالذات، وهذا لا يجوز أن يكون [واحداً] من هذه الأقسام، وقَرَّرَ أَنَّ / ٢٤/ قولهم انتقض بهذا؛ لأن الأمس متقدم، لا بشيء من هذا. قال: ولقد رأيته يأخذ بأطراف الكلام على كل من حضر على كثرة العلماء. قال: والعلماء تحضر مجلسه، وتفطر في شهر رمضان عنده، يأمر (صدر جهان) كل ليلة واحداً ممن حضر بأن يذكر نكته، ثم تتجاذب الجماعة أطراف البحث فيها، بحضرة السلطان، وهو كواحد منهم، يتكلم

= يقول عنه «عماد الدين الأصفهاني»: «وكان ملكشاه، مَلِكا سيرته العدل، وسريرته الإنصاف، والفضل، شجاعاً، مقداما، صائب الرأي والتدبير، ضَيِّقاً بالتاج والسرير، أيامه في أيام آل سلجوق، الواسطة في العقد». كانت ولادته في التاسع من جمادى الأولى سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥» ووفاته في السادس عشر من شوال سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م). «تاريخ دولة آل سلجوق ٥٧، ٧٠، ٨٠» .

(١) لعله كتاب (الهداية شرح بداية المبتدىء) لمؤلفه (برهان الدين علي بن أبي بكر بن عبد الجليل الفرغاني المرغيناني) المتوفى سنة (٥٩٣هـ/ ١١٩٩م). «كشف الظنون ٢٠٣١، والأعلام ٥/ ٧٣، ومعجم المؤلفين ٧/ ٤٥» .

(٢) هو النعمان بن ثابت بن زوطي، التيمي بالولاء، الكوفي، أبو حنيفة إمام الحنفية فقيه مجتهد، أصله من فارس، وُلد بالكوفة سنة ٨٠هـ/ ٦٩٩م ونشأ بها، مارس مهنة عمل القز، وبيعه، امتنع عن القضاء لعمر بن هبيرة في الكوفة، وعن القضاء للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور في بغداد تُقَىً وورعاً، حبسه المنصور إلى أن مات. سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م، وعمره سبعون سنة، من مؤلفاته: «الفقه الأكبر» في الكلام وقيل إنه منسوب إليه، و«المسند» في الحديث، و«العالم والمتعلم» في العقائد، و«المخارج» في الفقه، و«الرد على القدرية».

ترجمته في: الفهرست ٢٥٥ ـ ٢٥٦ وتاريخ بغداد ١٣/ ٣٢٣ ـ ٤٢٣، ووفيات الأعيان ٥/ ٤٠٥ ـ ٤١٥، ومرآة الجنان ١/ ٣٣٠ ـ ٣٣٣، والبداية والنهاية ١٠/ ١٠٧ ـ ١٠٨، والنجوم الزاهرة ١/ ١٢ ـ ٣٣٣، ومفتاح السعادة ٢/ ١٩٥ ـ ٢١٦، الأعلام ٨/ ٣٦.

(٣) المعقول: عِلم يُبْحث فيه عن العقل. راجع «محيط المحيط ٦٢٢» .

(٤) ممهدة: متمكنة «القاموس المحيط ١/ ٣٥٢» .

معهم، ويبحث بينهم وَيُورَد عليه.

وهو[١] ممن لا يُرَخِّص في محذور، ولا يُقِرّ أحداً على منكر، ولا يتجاسر أحد أن يتظاهر في بلادٍ بمحرم، وأشد ما ينكر على الخمر، ويقيم الحد فيه، ويبالغ في تأديب من يتعاطاه من المقربين إليه.

حدثني السيد الشريف تاج الدين بن أبي المجاهد الحسن السمرقندي: أن بعض الخانات الأكابر بدِهْلي كان يشرب الخمرة، ويُدْمنها ويُصِرّ عليها، وكان يُنهى، فلا ينتهي، فغضب عليه هذا السلطان غضباً شديداً، وأمسكه وأخذ أمواله، فكان جُمْلة ما وجد له أربعمائة ألف ألف مثقال[٢]، وسبعة وثلاثون ألف ألف مثقال ذهباً أحمر.

وفي هذه الحكاية كفاية في مبالغته في إنكار المنكر، وفي سعة أموال هذه البلاد، فإن هذا المبلغ، إذا حُسب بالقناطير المصرية، كان ثلاثة وأربعين ألف قنطار[٣]، وسبعمائة قنطار ذهباً، وهذا مما لا يكاد يدخل تحت حصر ولا إحصاء. وحكى لي هذا الشريف، حسن السمرقندي، وهو ممن جال الأرض، وجاب الآفاق، عن أموال هذه البلاد، ما تحار العقول فيه، من مثل هذا وأشباهه.

وله[٤] من وجوه البِرِّ والصّدقات ما تسطّره الدنيا في صحائف حسناتها، وتُرَقّمه الأيام في غُرر جبهاتها، سمعت منه أحاديث جملتها ما علمت تفصيلها، حتى حدثني الشيخ المبارك. مبارك: أن هذا السلطان، يتصدق في كل يوم بلكّين، لا أقل منهما، يكون عنهما من نقد مصر والشام ألف ألف وستمائة ألف درهم، في كل يوم، ربما بَلَغتْ صدقته في بعض الأيام خمسين لُكّاً، ويتصدق عند رؤية كل هلال، من كل شهر

---

(١) راجع ما كتبه ابن بطوطة في «رحلته ٤٦٩»، عن اشتداد السلطان في إقامة الصلاة وإقامة أحكام الشرع.

(٢) مثقال: هو اسم لما ثَقُل، سواء كَبُر، أو صَغُر، وغلب عُرْفه على الصغير، كما صار في عُرف الناس إسماً على الدينار، ويُسَّمى المثقال من الفضة درهماً، ومن الذهب ديناراً، فهو وزن لم يختلف في جاهلية ولا في إسلام، حيث يساوي أربعة وعشرين قيراطاً، وهو يساوي اثنتين وسبعين حبة شعير من الوسط باتفاق العلماء، ما عدا (ابن حزم)، الذي قدَّره بأربعة وثمانين حبة. «الصبح ٣/ ٤٣٦»، و«المقدمة ٢/ ٧٠١ ـ ٧٠٢»، و«كتاب النقود الإسلامية ٤، ٥».

(٣) قنطار: القنطار، معيار، قيل: وَزْن أربعين أوقية من ذهب، وقيل: ألف ومائة دينار. وقيل: مائة وعشرين رطلا «لسان العرب ٦/ ٤٣١ ـ ٤٣٢».

(٤) راجع ما دونه، ابن بطوطة في «رحلته ٤٥٢ ـ ٤٦٤» من أخبار السلطان (محمد تغلق شاه) في الجود والكرم، وعطائه وجوائزه، للعلماء، ومن وفد على بلاده من الغرباء، يقول ابن بطوطة: «وإنما أذكر منها ما حضرته، وشاهدته، وعاينته، ويعلم الله صدق ما أقول، مع أن الذي أحكيه مستفيض، متواتر، والبلاد التي تقرب من أرض الهند، كاليمن، وخراسان، وفارس، مملؤة بأخباره، يعلمون حقيقتها، ولا سيما جوده على الغرباء». «الرحلة ٤٥٢» .

بلكين، عادة دائمة لا يقطعها. وعليه راتب مستمر لأربعين ألف فقير، لكل واحد منهم، في كل يوم درهم واحد، وخمسة / ٢٥/ أرطال[١] خبز وقمح، أو أرز. وقَرّر ألف فقيه في مكاتب[٢]، أرزاقهم على ديوانه، تعلّم الأيتام، وأولاد الناس القراءة والكتابة ولا يدع بدِهْلي سائلاً يَسْتَعْطِي الناس، بل كل من استعطى مُنع من هذا، وأُجري عليه ما يُجرى على أمثاله من الفقراء.

فأما إحسانه إلى الغرباء، ومن يؤمِّله، فما يكاد يخرج عن حد التصديق. حدثني الفاضل نظام الدين أبو الفضائل، يحيى بن الحكيم الطَّيَّاري، قال: كان عندنا بالأَرْدو، في خدمة السلطان أبي سعيد رجل اسمه عضد[٣] الدولة ابن قاضي يَزْد، يروم الوزارة، ولا يؤهل لها ولا يعد من أكفائها، فلا يزال يَشْغَب على الوزراء، ويفْتِن بين أهل الأَرْدو، فاتفق رأيهم على إبعاده، فبعثوه رسولاً إلى دِهْلي برسالة مضمونها السلام، والوداد، وللسؤال والافتقاد، وعملوا هذا صورة ظاهرة، لإبعاده، وكان قصدهم، أن لا يعود، فلما حصل في دِهْلي، وحضر في حضرة هذا السلطان، وأدى الرسالة، أقبل عليه وشَرّفه بالخِلع والعطاء، وأَحَلّه من كَنفِه[٤] في مَحَل الرَّحب والسعة، وأطلق له حِملاً من المال. ثم لما أراد الانصراف عائداً إلى مرسله، قال له: ادخل إلى الخزانة وخذ ممّا شئت، وكان هذا السيد عضد رجلاً داهية، فلما دخل الخزانة، لم يأخذ سِوى مصحف واحد، فسمع السلطان بهذا فأعجبه، وقال له: لأي شيء ما أخذت إلا هذا المصحف؟ فقال: لأن السلطان قد أغناني بفضله، ولم أجد أشرف من كتاب الله، فازداد إعجابه بفعله، وبكلامه، ووقعا منه موقع الاستحسان، وأعطاه مالاً جَمّاً[٥]، منه ما هو خاص بنفسه، ومنه ما هو معه لأبي سعيد على سبيل المهاداة، وكان جملة ما اتصل إليه منه، مما هو لأبي سعيد، وما هُوَ لَهُ ثمانمائة

(١) أرطال: الرَّطْل والرِّطْل، يُوزن به ويُكال، وهو اثنتا عشرة أوقية بالوزن، أمَّا بالكيل، فيعادل نصف مَنٍّ. «لسان العرب ١٣/ ٣٠٤».

(٢) مكاتب: جاء في لسان العرب ٢/ ١٩٣، «المَكْتَب: موضع الكتاب، والمُكْتِب: المُعَلِّم، والكُتَّاب: موضع التعليم، والجمع الكتاتيب، والمكاتب، ويرى المبَرِّد، أنّ المكتب: موضع التعليم، والمُكْتِب: المعلم، والكُتَّاب: الصبيان.

(٣) جاء في «الدرر ٣/ ٦٩»: أنه عضد الدولة ابن قاضي يزد، التاجر الخواجا، كان مشهوراً بكثرة البيان والمعرفة، أرسله أبو سعيد إلى السلطان (محمد بن تغلق شاه) ملك الهند، فبالغ في إكرامه.

(٤) كنفه: كَنَفَه ضمه إليه، وجعله في عياله، وفلان يعيش في كنف فلان في ظله. «لسان العرب ١١/ ٢١٩».

(٥) جماً: أي كثيراً. «المصباح المنير ١/ ١٢٠».

تومان[١]؛ ـ التومان عشرة آلاف دينار[٢] رائجاً، الدينار ستة دراهم، فيكون هذا المبلغ ثمانية آلاف ألف دينارٍ رَائِجاً، عنها ثمانية وأربعون ألف ألف درهم ـ فلما عاد بهذا المال المدود، خشي أن يؤخذ في الأرْدو منه ففرّقه أقساماً، وغيّبه عن العيون، وكان أمير أحمد بن خواجا رشيد، وهو أخو الوزير، قد وقع له أمر اقتضى إخراجه من الأرْدو، وروعي لمكان أخيه الوزير غياث الدين محمد[٣]، وكتب له بأن يكون أمير الأيلكاه، ومعنى هذا، أنه يحكم، حيث حل من المملكة؛ حتى على حكامها، فصادف في طريقه هذا السيد عَضُد، فأخذ منه شيئاً كثيراً، احتمل أنه عمل منه عدة حمول من أواني الذهب، والفضة، ليقدمها إلى أبي سعيد والخواتين[٤]، وأحسبه [سأله] العود إلى الأرْدو فعاجله الموت، ثم مات أبو سعيد والسيد عضد، وتصرمت تلك الأيام، وذهب الذهب، ولم يغن أحداً ما كسب.

قال ابن الحكيم: وهذا السلطان صاحب دِهْلي كَرَمه خارق، وإحسانه إلى الغرباء عظيم، قصده بعض الفضلاء، من بلاد فارس، وقَدَّم إليه كتباً حِكْمِيّة، منها «الشفا»[٥] لابن سينا[٦]، واتَّفق أنه لما مثل بين يديه، وقدمها له أحضر إليه حِمْل

---

(١) تومان: التومان عشرة آلاف، وقطعة تساوي نحو تسعة غروش، فارسي، جمعها (تومانات)، و(توامين). «محيط المحيط ٧٥».

(٢) اختلف في أصله، فقيل عربي، وقيل فارسي، والمشهور عنه أنه قطعة من الذهب بينما الدرهم قطعة من الفضة، لذا يُشَبه الدينار بالشمس، والدرهم بالبدر، وقد تعرض كغيره من أنواع العملات إلى التعديل في وزنه؛ فالعادة، أن يكون (مثقالاً)، ولكن وُجد من السلاطين من زاد فيه، وأنقص منه. راجع «النقود الإسلامية» (٣ ـ ٥)، و«محيط المحيط ٢٩٤»، و«النظم الإقطاعية ٥٢٥».

(٣) لعله الوزير غياث الدين محمد أرباكاؤن، أقامه القان (أبو سعيد)، مكان والده، (أرباكاؤن) المتوفى سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م سلطاناً على العراق، وأذربيجان والروم. «السلوك ج٢ ق٢ ص٤٠٦».

(٤) الخواتين: جمع (خاتون)، وهي لفظة (تركية) أو (تترية) تُلَقَّب بها نساء الملوك عند العرب وإذا أضيفت إلى جنب الاسم، تقوم مقام السيدة، للإشارة إلى الجليلات من نساء المجتمع خصوصاً أميرات الأسرة الحاكمة، مثل (تركان خاتون)، راجع «محيط المحيط ٢١٧»، و«الألقاب الإسلامية ٢٦٤ـ٢٦٦».

(٥) كتاب في الحكمة، والمنطق، يذكر حاجي خليفة في «كشف الظنون ٢/ ١٠٥٥» أنه يقع في ثمانية عشر مجلداً، شرحه أبو عبد الله محمد بن أحمد الأديب التجاني (البجائي)، صاحب تحفة العروس، واختصره شمس الدين عبد الحميد بن عيسى الخسروشاهي التبريزي، المتوفى سنة (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م).

(٦) أبو علي، الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، فيلسوف، طبيب شاعر، وصاحب تصانيف في الطب، والفلسفة، والمنطق، والطبيعيات والإلهيات، ولد في قرية من قرى بخارى هي (خرميثنا) وفي رواية (أفشنة) في صفر من سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠. وفي العشرين من عمره، حفظ القرآن الكريم ونال حظاً وافراً من الأدب، وأصول الدين، وعلوم الحساب، والهندسة، والجبر، وغيرها من العلوم، وبرع بها حتى أنه لقب بـ(الشيخ الرئيس). توفي بهمذان يوم الجمعة من شهر رمضان سنة (٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م).

جليل من الجواهر الثمينة فحثا له منه ملء يده، وأعطاه له، وكان بعشرين ألف مثقال، من الذهب، هذا غير بقية ما وصله به.

وحدثني الشريف السمرقندي: إن أهل بخارى[١]، يقصدونه بالبطيخ الأصفر المبقى عندهم في زمن الشتاء، فيعطيهم عطاء جزيلاً. قال: ومنهم واحد أعرفه، حمل إليه حِمْلين من البطيخ، فتلف غالبه، ولم يصل معه إلا اثنتان وعشرون بطيخة، فأعطاه ثلاثة آلاف مثقال من الذهب.

قال الشيخ أبو بكر بن أبي الحسن المُلْتاني، المعروف بابن التاج الحافظ: الذي بلغنا بالملتان، واستفاض عندنا بها. ثم إني سافرت إلى دهلي، وأقمت بها، ووجدت هذا أيضاً مستفيضاً فيها، أن هذا السلطان، التزم أنه لا يَنْطق في إطلاقاته بأقل من ذلك.

وحدّثني الخُجَنْدي، قال: قصدته، واتصلت به، فأنعم علي بألف مثقال من الذهب، ثم سأل، إن كنت أختار الإقامة أو العود، فقلت: اخترت الإقامة، فأجْرَاني في جملة الجند.

وحدثني الشيخ أبو بكر بن الخلال البزي الصوفي قال: بعث هذا السلطان، مع جماعة، أنا /٢٧/ منهم [ثلاثة لكوك] ذهباً إلى بلاد ما وراء النهر[٢]؛ لتُفَرَّق على العلماء لكاً منها، ويُتَصدق على الفقراء بلكٍ منها، ويُبتَاع له باللك الثالث.

قال: وقال لنا: بلغني أنَّ الشيخ برهان الدين[٣] الصاغرجي، ـ شيخ سَمَرْقَند[٤] ـ

= من تصانيفه: «القانون في الطب»، «لسان العرب» في اللغة، «الموجز الكبير» في المنطق، «الشفا» في الحكمة.

ترجمته في: وفيات الأعيان ٢/ ١٥٧ـ ١٦٢، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٣١ـ ٥٣٧، ودائرة المعارف الإسلامية ١/ ٢٠٣ـ ٢١٠، والأعلام ٢/ ٢٤١ـ ٢٤٢. ومعجم المؤلفين ٤/ ٢٠ـ ٢٣.

(١) بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر، وأجلها، يُعْبَر إليها من آمل الشط، وبينها وبين جَيْجون يومان من هذا الوجه، وكانت قاعدة ملك السامانيين «معجم البلدان ١/ ٣٥٣».

(٢) بلاد ما وراء النهر، اسم أطلقه العرب على المناطق الواقعة شمال نهر (جَيْجون)، «بلدان الخلافة الشرقية ٤٧٦».

(٣) يقول عنه ابن بطوطة في رحلته ٤٥٧: «كان برهان الدين أحد الوعاظ الأئمة، كثير الإيثار، باذلاً لما يملكه، حتى أنه كثيراً ما يأخذ الديون، ويؤثر على الناس، فبلغ خبره إلى السلطان، فبعث إليه أربعين ألف دينار، وطلب منه أن يصل إلى حضرته، فقبل الدنانير، وقضى دينه منه، وتوجه إلى بلاد الخَطَا، وأبى أن يصل إليه. وقال: لا أمضي إلى سلطان يقف العلماء بين يديه».

(٤) سَمَرْقَند: تقع في أعلى نهر (جَيْجون) على بعد ١٥٠ ميلاً شرق بخارى. يطلق عليها بالعربية اسم (سُمْران) كانت قاعدة للصُّغْد. «معجم البلدان ٣/ ٢٤٦» ، و«بلدان الخلافة الشرقية ٥٠٦».

فريد في العلوم والزهد، وأنه لا يُثْبِت عنده مالاً، فأعطوه أربعين ألف تَنْكة يتزود بها إلى المُلْتان، ثم إذا دخل بلادنا، جدْنا عليه بالأموال. ثم قال: وإن لم تجدوه أعطوا هذا المبلغ لأهله، ليوصلوه إليه، إذا جاء ويُعَرِّفوه بأننا نطلبه ليتزَوَّد إلى الملتان.

قال: فلما وصلنا إلى سَمَرْقند، وجدناه قد دخل إلى بلاد الصين، فأعطينا المال، لجاريته، وعَرَّفناها برغبة السلطان فيه، وحَثِّه في طلبه.

وحدثني الفقيه أبو الصفا، عمر بن إسحاق الشبلي، أن هذا السلطان، لا يفارق العلماء سَفَراً ولا حَضَراً، قال: وكنا معه في بعض غزواته، فلما كنا في أثناء الطريق جاءته من مقدمة عساكره كُتُبُ البشرى بالفتوح، ونحن بين يديه فحصل له السرور وقال: هذا ببركة هؤلاء العلماء، ثم أمر بأن يدخلوا بيت المال، ويحملوا من المال ما قَدَروا عليه، ومن كان منهم ضعيفاً يَسْتَنِيب مَنْ يحمل مِنْ ذلك المال عنه.

قال: فدخلوا إلى الخزانة، ولم أدخل أنا، ولا كثير من أمثالي؛ لأننا لم نكن من تلك الطبقة. وحمل أولئك، كل واحدٍ كيسين، كل كيس عشرة آلاف درهم، إلا واحداً منهم، فإنه حمل ثلاثة أكياس، اثنين تحت إبطيه، وآخر فوق رأسه، فلما رآهم السلطان ضحك تعجباً من حرص الذي حمل الثلاثة، وسأل عن بقية الجماعة [مِمّن] لم يدخل مثلي، فقيل له: إن هؤلاء دون أولئك، لأنّ أولئك من المدرسين؛ وهؤلاء من المعيدين[١]، فأمر لكل واحد منا بعشرة آلاف درهم، ففرقت علينا.

قال: ومنار الشَّرع عنده قائم، وسوق أهل العلم لديه رائج، يُشار إليهم بالتوقير والإجلال[٢]، وهم في غاية المحافظة على ما يَنْقَام به ناموسهم[٣]، من إصلاح

---

(١) المعيدين: المعيد، ثاني رتبة، بعد المدرس، الدرس، وانصرف، أعاد للطلبة ما ألقاه المدرس إليهم، ليفهموه ويحسنوه «الصبح ٥/ ٤٦٤».

(٢) بالرغم مما اشتهر به السلطان (محمد تغلق شاه) من توقير وإكرام وإحسان للعلماء، إلا أنه كان أحياناً شديد البطش ببعضهم ممن يخالف أوامره، أو يعلن معارضته لبعض تصرفاته، وممن تعرّض لبطشه الشيخ «شهاب الدين ابن شيخ الجام الخراساني»، الذي رفض خدمته، وأعلن رفضه في مجلس عام، وقال: «لا أخدم ظالماً»فنتف لحيته، ونفاه إلى (دولة آباد) سبعة أعوام، بل سقاه العُذْرة، وضرب عنقه بعد ذلك، وكذلك الفقيه المدرس (عفيف الدين الكاساني) قتله، قِتْلة شنيعة؛ قطع رأسه مع الذراع وبعض الصدر، بسبب معارضته لبعض تصرفاته. كما قتل الشيخ (زاده) المسمى بـ(هود) حفيد (ركن الدين بن بهاء الدين بن أبي زكريا المُلْتاني)، وسجن الشيخ (شمس الدين بن تاج العارفين) بعد أن سمل عينيه حتى توفي، كما قتل أيضاً أولاده وكذلك قتل الشيخ (علي الحيدري) وغيرهم، لأسباب لا توجب القتل، وإنما هو تسرع السلطان وحبه لسفك الدماء، وقد بسط (ابن بطوطة) أخباره مع هؤلاء العلماء في «رحلته ٤٧٢ـ ٤٧٨».

(٣) ناموسهم: النَّاموس هو «الشرع الذي شرعه الله» «كتاب التعريفات ٢٥٨»، ويكون المعنى على هذا، (ما ينقام به شرعهم).

الظاهر والباطن، والمداومة، على قراءة العلم /٢٨/ وإقرائه والتحري في كل أمورهم، والاقتصاد في جميع أحوالهم.

وهذا السلطان لا يَتَأَنّى عن الاجتهاد في الجهاد بَرّاً وبَحْراً، لا يثني عنه عِنَانه[١]، ولا سِنَانه[٢]، ولا يزال هذا دأبه بنصب عينيه، ودبر أذنه، وقد بلغ مبلغاً عظيماً في إعلاء كلمة الإيمان، ونشر الإسلام في تلك الأقطار حتى سطع في ذلك السواد ضوء الإسلام، وبرقت في تلك الأنواء[٣] بوارق الهدى، وهَدَم بيوت النيران، وكَسَر البدود[٤]، والأصنام، [وأخْلى] البَرّ ممن ليس بِبَرٍّ، إلا من هو تحت عقد الذِّمة[٥]، واتصل به الإسلام إلى أقصى الشرق، وقابل مطلع الشمس لألاء الصباح

---

(١) أي عنان فرسه، راجع «المخصص ٦/ ١٨٩».

(٢) سِنانه: السِّنَان: قيل هو (الخَرْص)، وقيل (الرّمح)، وقيل: رمح قصير، يُتّخذ من الخشب «كتاب السلاح ١٦»، و«المخصص ٦/ ٢٩»، و«نهاية الأرب ٦/ ٢١٧».

(٣) الأنواء: جمع مفرده نوء، وهو المطر، كما جاء (النوى) بمعنى الوجه الذي يقصده المسافر، راجع «لسان العرب ٢٠/ ٢٢٢»، و«المصباح المنير ٢/ ٣٠٤».

(٤) البدود: مفردها (بدّ) وهو صنم الهند الأكبر، ويسمى كل صنم بداً. «مفاتيح العلوم ١٠١» وجاء في محيط المحيط ٣٠»، البدّ: «الصنم، وبيت الصنم، مُعَرّب (بت) بالفارسية».

(٥) عقد الذمة: رتبته دون (الأمان) بالنسبة للإمام، وذلك، إنما يُقَرِّره بعوض يأخذه منهم، بخلاف الأمان. أما معناه، فهو عبارة عن التزام تقريرهم في دار المسلمين، وحمايتهم، والذبَّ عنهم، ببذل الجزية، أو الإسلام من جهتهم، يختص بهذا العقد، على الأرجح، الإمام، أو نائبه، فهو من الأمور الكلية، التي تحتاج إلى نظر واجتهاد. ويشترط للمعقود له: التكليف، والذكورة، والحرية، وأن يكون من أهل الكتاب؛ كاليهود، والنصارى، والمجوس، ومن بهم سُنّة أهل الكتاب، والسَّامرة في حال موافقة أصولهم، أصول اليهود، والصَّابئة، في حال موافقة أصولهم أصول النصارى. مدة العقد غير مُقَيَّدة بوقت محدد ينتهي عنده.

ويقرر العقد في جميع البلاد الإسلامية، ما عدا الحجاز واليمامة، ومخالفيها. ويُطلب منهم إذا عُقِد لهم الذمة، عدة أشياء:

الجزية، وضيافة من يمر بهم من المسلمين، (مع تقييد الإقامة بثلاثة أيام، وكذلك تقييد عدد الضيفان من فرسان، ورجّاله، وعدد دوابهم... وهي على غير الفقير من أهل الذمة)، الانقياد لأحكام المسلمين، عدم ركوب الخيل، إنزال المسلمين صدر المجلس، وصدر الطريق، التمييز عن المسلمين في اللباس، ألا يرفعوا ما يبنونه من بنيان على جيرانهم المسلمين، وألا يساوونه به، وألا يحدثوا كنيسة، ولا بيعة، فيما أحدثه المسلمون من بلاد؛ كالبصرة، والكوفة، وبغداد، والقاهرة، ولا بلد أسلم أهلها عليها: كالمدينة واليمن، وكذلك لا يجوز إحداث كنيسة، أوبيعة، أو الإبقاء على القديم منها فيما فتح عنوة، أما ما فتح صلحاً بخراج، فيجوز فيها إحداث الكنائس، وإبقاء القديم منها.. وأخيراً معرفة ما ينتقص به عهدهم. مثل قتال المسلمين بلا شبهة، منع الجزية، الزنا بمسلمة...إلخ. على ما هو مبسوط في «الصبح ١٣/ ٣٥٦ـ ٣٦٥».

المشرق، وأوصل راية الأمة المحمدية، كما قال أبو نصر العتبي[١]: إلى حيث لم تصل إليه رجاء راية، ولا تُليت به سورة، ولا آية، فعمر الجوامع والمساجد، وأبطل التطريب بالأذان، وأسكت المزمزة بالقرآن، وبَوَّأ[٢] أهل هذه الملة قمم الكفّار، وأورثهم بتأييد الله أموالهم، وديارهم، وأرضاً لم يَطَأوها، وهو مع هذا تُمَدّ له خافِقَةٌ[٣] مع كل خَافِقَةٍ[٤]، ففي البر عِقْبان[٥] الأعلام[٦]، وفي البحر غِرْبان[٧] السفن الجواري المنشآت كالأعلام، حتى إنه لا يخلو يوم من الأيام من بيع آلاف مؤلفة من الرقيق، بأقل الأثمان؛ لكثرة السبي والأخذ.

حدثني كل هؤلاء أن الجارية الخَدَّامة لا يتعدى ثمنها، بمدينة دِهْلي ثمان تَنْكات، واللواتي يصلحن للخدمة والفراش (خمس عشرة تَنْكة) وأما في غير دِهْلي فإنهن بأرخص من هذه الأثمان.

قال لي أبو الصفا عمر بن إسحاق الشبلي: إنه اشترى عبداً مراهقاً نفاعاً[٨] بأربعة دراهم. وقِسْ على مثل هذا. قال: ومع رخص قيمة الرقيق، وهو أنه يوجد من الجواري الهنديات، من يبلغ ثمنها عشرين ألف تَنْكة وأكثر. وهكذا قال لي ابن التاج الحافظ الملتاني. قلت: وكيف تبلغ الجارية هذا الثمن مع الرخص؟ قال لي كل واحد في مجلس على انفراد: لحسن خَلْقِها، ولطف خلائِقِها، ولأن غالب مثل هذه

---

(١) أبو النصر، محمد بن عبد الجبّار العُتبي من (أبي نصر العتبي)، أصله من الرّي، نشأ في خراسان في كَنَف خاله أبي نصر العتبي، وهو من وجوه عمالها وفضلائها، عمل كاتباً للأمير (أبي علي)، ثم للأمير أبي منصور سبكتكين مع أبي الفتح البستي، كما تولى نيابة خراسان عن شمس المعالي قابوس بن وشمكير، استوطن نيسابور، وأقبل على خدمة الآداب والعلوم إلى أن توفي سنة ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م.

من مؤلفاته: «لطائف الكتاب» في الأدب، و«اليميني» نسبة إلى يمين الدولة محمود بن سبكتكين المعروف بـ«تاريخ العتبي» وقد شرحه المنيني في مجلدين.

ترجمته في: يتيمة الدهر ٤/ ٤٥٨، وكشف الظنون ١٥٥٣، ٢٠٥٢، وهدية العارفين٢/ ٦٨، والأعلام ٦/ ١٨٤، ومعجم المؤلفين ١٠/ ١٢٦.

(٢) بوأ: هنا بمعنى أَكن، «المصباح المنير ١/ ٧٥».

(٣) خافِقَةٌ: راية. «القاموس المحيط ٣/ ٢٣٥».

(٤) خَافِقَةٍ: المفازة الملساء. «لسان العرب ١٢/ ٣٧٠».

(٥) عِقبان: جمع عقاب، وهو من أعظم جوارح الطير. «المخصص ٨/ ١٤٥».

(٦) الأعلام: الجبال، والعَلَم، الجبل الطويل. «لسان العرب ١٥/ ٣١٥».

(٧) غِربان: جمع غراب، وهو طائر أسود كبير، يُضرب به المثل في السواد، والبعد، والبكور، يُقال: أحذر من الغراب، ودون هذا شيب الغراب. «محيط المحيط ٦٥٤».

(٨) نفاعاً: أي كثير النفع، ينفع الناس، ولا يضر. «لسان العرب ١٠/ ٢٣٧».

الجواري، يحفظن القرآن، ويكتبن /٢٩/ الخط، ويروين الأشعار والأخبار، ويُجِدْن الغناء، وضرب العود، ولعب الشطرنج، والنَّرد[١]، ومثل هذه الجواري يتفاخرن في مثل هذا، فتقول الواحدة: أنا آخذ قلب سيدي في ثلاثة أيام. فتقول الأخرى: أنا آخذ قلبه في يوم. فتقول الأخرى: أنا آخذ قلبه في ساعة فتقول الأخرى: أنا آخذ قلبه في طرفة عين. قالوا: إنَّ ملاح الهنديات أكثر حُسْناً من الترك والقفجاق[٢] مع ما يتميزن به من التخريج العظيم، والتفنن الفاتن. وغالبهن ذهبيات الألوان، وفيهن بيض ذوات بياض ساطع، مختلطاً بالحمرة، وعلى كثرة وجود الترك، والقبجاق والروم، وسائر الأجناس عندهم، لا يفضل أحد على ملاح الهنديات سواهن، لكمال الحسن، والحلاوة، وأمور أخرى تدق عنها العبارة.

حدثني سراج الدين عمر الشِّبْلي أنه لا يلبس ثياب الكِتّان[٣]، المجلوبة إلى هذه المملكة، من الروس[٤]، والإسكندرية، إلا من لَبّسه السلطان منهم، وإلا فقُمُصهم

---

(١) النّرد: آلة لعب، وضعها (آردشير بن بابك) أول طبقة الأكاسرة من ملوكهم، ولذا قيل له: (نَرْدَ شير)، رَتَّب الرقعة اثني عشر بيتاً، بعدد مشهور السنة، والمهارك ثلاثين قطعة، بعدد أيام الشهر، وجعل الفصوص بمثابة الأفلاك، ورَصَّها مثل تقلبها ودورانها، وقد ورد في الشريعة ذم اللعب به. «الصبح ٢/١٤٨ـ ١٤٩».

(٢) القفْجاق: ويقال لهم (القَبْجاق) أو (الخفشاخ)، أو (الخفحاج)، وهم جنس من الترك، أهل حل وترحال، يسكنون صحارى أو إقليم (الدَّشْت) الواقع إلى الشمال، والشمال الغربي من بحر الخزر (قزوين) كان لشح مواردهم، وقسوة مناخ بلادهم، واعتمادهم على الرعي، (الذي كثيراً ما يَتْلف لشدة البرودة، فتنفق مواشيهم)، أثره فيما كانوا يعانونه من جهد وظَنَك العيش، وربما لجأوا في بعض المرات لبيع أبنائهم من شدة الفقر، وكانوا مع ذلك، يتميزون بالوفاء والشجاعة، وتجنب الغدر، مع قوة أجسامهم، وجمال صورهم وظرف شمائلهم، استكثر منهم الملك الصالح، نجم الدين أيوب، واتخذ منهم مماليكه وانخرطوا في الجيوش المصرية، ووصلوا إلى أعلى المراتب، وتَسَنَّم بعضهم ذُرْوَةَ المُلك والسلطة. «كتاب تقويم البلدان ٢٠٦»، و«التعريف بالمصطلح الشريف ٦٥»، و«صبح الأعشى ٤/ ٤٥١، ٤٥٦ـ ٤٥٨»، و«بلدان الخلافة الشرقية ٥٢٩».

(٣) الكتان: نبات سنوي، أول من زرعه المصريون، كان كثير الانتشار في عهد موسى عليه السلام، منه صُنعت أول الأقمشة للإنسان، انتشرت زراعته من آسيا وإفريقيا إلى أوربا منذ زمن بعيد، وتكثر زراعته حالياً في هولنده، وبلجيكا وفرنسا، ساقه أدق من ساق التيل، تتفرع نحو القمة، وتحمل أوراقاً دقيقة حادة، زهره أزرق، ثمره كالعلبة يحتوى على عشرة بذور صغيرة مفرطحة لامعة، لونها ضارب للحمرة. «إحياء التذكرة ٥٣٥».

(٤) الروس: جاء في «معجم البلدان ٣/ ٧٩»: يقال: لهم (رُس)، وهم أمة متاخمة للصّقالبة، والترك، لهم لغة، ودين وشريعة، مستقلة، عددهم مائة ألف، لا زرع لهم ولا ضرع، كثيراً ما تغير عليهم الصقالبة، ويأخذون أموالهم. بينما ذكر ابن خرداذبة في «المسالك والممالك ١٥٤»: أنهم جنس من الصقالبة، وللمزيد من المعلومات عن الروس، راجع ما كتبه (ابن فصلان) في «رسالته ١٧٥ ـ ١٨٨».

وثيابهم من القطن الرفيع، قال: تُعْمل منه ثياب شبيهات بالمقاطع البغدادية، ولكن أين المقاطع[١] البغدادية، أو النصافي[٢] منها ؟ لرفعتها، ولطافة بشرتها، فإن بعضها يوازي اللوانس في رفعتها، مع الصفق[٣] والمائية.

وحدثني الشيخ مبارك أنه لا يركب بالسروج الملبسة، أو المحلاّة بالذهب، إلا من أنعم السلطان عليه بشيء منها، فإذا أنعم عليه بشيء من المُحلى بالذهب كان إذناً له في اتخاذ ما شاء منه. وأما عامة ركوبهم، ففي المُلَبَّس أو المُحَلّى بالفضة. قال: والسلطان يُنْعِم على مَنْ في خدمته، على اختلاف أنواعهم؛ من أرباب السيف والقلم والعلم بكل شيء جليل، ونوع نفيس؛ من البلاد والأموال والجواهر والخيول، والسروج المُحَلاّة بالذّهب، والمناطق[٤] الذهبية، والأقمشة المختلفة الأنواع والأجناس إلا الفيلة، فإنها لا تكون إلا له، لا يشاركه فيها مشارك من جميع الناس.

قال: والفيلة لها رواتب كثيرة لعلوفاتها، لعل هذه الثلاثة آلاف فيل، / ٣٠/ لا يكفيها إلا دخل مملكة كبيرة. فسألته كم لها ؟ قال: تختلف أجناسها، وأشكالها، وعلى قدر اختلافها علوفاتها. وأنا أقول لك، أكثر ما يريد كل فيل. في كل يوم، وأقل ما يريد، أما أكثر ما يريد في كل يوم، فهو أربعون رطلاً من رز، وستون رطلاً من شعير، وعشرون رطلاً من سمن، ونصف حِمْل حشيش[٥]. وأما ما تريده سُوّاسها[٦]، والقَوَمة[٧] عليها

---

(١) المقاطع: جاء في «لسان العرب ١٠/ ١٥٦»: أن المقطّعات، تطلق على جميع الثياب القِصار، والقِطْع ضرب من الثياب الموشّاة، والجمع قطوع، والمقطّعات، برود عليها وشيء مُقَطّع، والقِطْع، النمرقة..

(٢) النَّصافي: النَّصيف، الخِمار، والنصيف ثوب تتجلل به المرأة، فوق ثيابها كلها، سُمّي نصيفاً لأنه بين الناس، وبينها، فحَجَز أبصارهم عنها. «لسان العرب ١١/ ٢٤٥»، قماشها من نسيج الحرير، والكتان، أو القطن الخشن «العصر المماليكي ٤٨١».

(٣) الصَّفق: يقال: «ثوب صفيق متين بَيِّن الصفاقة، وقد صَفُق صفاقة، كَثُف نسجه، وأصْفَقه الحائك، وثوب صفيق وسَفِيق جيد النسيج» «لسان العرب ١٢/ ٧٣» .

(٤) المناطِق: مفردها (مِنْطقة) وهي ما يُشد بها الوسط، وغالباً ما تكون من الذهب، أو الفضة، وأحياناً من الجلد أو القماش، وتسمى (حُيَّاصة) «التعريف ٢٧٣»، «صبح الأعشى ٢/ ١٣٤، ٤/ ٥٢_ ٥٣»، و«الخطط ٢/ ٩٩» و«الملابس الملوكية ٤٧»، و«العصر المماليكي ٤٧٨».

(٥) الحشيش: هو اليابس من النبات، أو الكلأ والعشب، ولا يقال للرَّطْب منه حشيش. «المصباح المنير ١/ ١٤٨».

(٦) سواسها: جاء في «لسان العرب ٧/ ٤١٣»: «السياسة، القيام على الشيء بما يُصلحه، والسياسة فعل السائس، يُقال: هو يسوس الدوابَّ، إذا قام عليها وراضها والوالي يسوس رعيته».

(٧) القومة: أيّ المهتمين بشؤونها. راجع: «لسان العرب ١٥/ ٤٠٥».

فجملة كثيرة، وأمور كثيرة، قال: وشِحْنَة(١) الفيلة رَجُل كبير من أكابر الدولة. قال الشبلي: يكون إقطاعه، قدر إقليم كبير، مثل العراق.

وهيأة وقوف ملوك هذه المملكة في مواقف الحرب؛ أن يقف السلطان في القلب، وحوله الأئِمّةُ والعلماءُ، والرّماة قُدَّامه وخَلْفَه، وتمتد الميمنة والميسرة موصولة بالجناحين، وأمامه الفيول الملبسة بالإركصطوانات الحديد، وعليها الأبراج المُسَتَّرة فيها المقاتلة، على ما قدمنا القول فيه، وفي الأبراج منافِذ لرمي النّشّاب. ومَرْمَى قوارير النِّفْط(٢)، وقُدَّام الفيول العبيد المشاة، في خفّ من اللباس، بالسيوف والسلاح، يُفْسِحون مجال الفيول، ويُعَرْقِبون(٣) الخيول بالسيوف، والرُّماة في الأبراج، تكشف عليهم مَنْ خلفهم، مِنْ فَوْق، والخيل في الميمنة، والميسرة تضم أطراف الأرض على الأعداء، وتقاتل من حول الفيول، وورائها، فلا يجد الهارب مَغَاراً ولا مدخلاً، فلا يكاد يَنْجو قُدَّامهم لاحتياط العساكر المحدقة بهم، ومواقع النشَّاب والنفط من فوقهم، ومُخَالَسَةِ الرَّجّالة لهم من تحتهم، فيأتيهم الموت من كل مكان، ويحيط بهم البلاء من كل جهة. ولقد تهيأ لهذا السلطان(٤) القائم بها الآن ما لا تهيأ لأحد قبله من ملوك هذه المملكة، من النصر والاستظهار وفتوح الممالك، وَهَدْم قواعد الكفار، وحلِّ عُقَد السَّحَرة، وإبطال، ما كانت تتعلل به الهنود، من

---

(١) شِحْنَة: الشِّحْنَة، يطلق على الشرطة، ويقال لرئيس الشرطة، صاحب الشحنة، وللوظيفة الشحنكية، ولعل المقصود بـ(شحنة الفيلة) هنا هو المسؤول الأول عن رعايتها، والاهتمام بها، أي رئيس سوّاسها، والقومة عليها، قياساً برئيس الشرطة، أو صاحب الشحنة. عن معنى الشحنة، راجع: «صبح الأعشى» ٥/ ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٤» و«النظم الإقطاعية ٤٩٦»، و«العصر المماليكي ٤٤٩».

(٢) قوارير النفط: عبارة عن قذائف من مواد ملتهبة، وقد نُسب إلى عبد الله بن الزبير، استخدامه آنية من النفط الملتهبة في حجم اليد، أثناء حصاره في مكة المكرمة، كما عُرف عن البيزنطيين استخدامهم للنار الإغريقية، وهي مزيج من النفط، والقار، والزيت النباتي، والشحم، ومعادن ومواد ملتهبة أخرى، وقد تعرف المسلمون على سِرّ صناعة النار الإغريقية من البيزنطيين، واستخدموها في حربهم ضد الصليبيين، في مصر والشام. «الموسوعة العربية الميسرة» (١٨٤١) وقد ورد في الموسوعة أن حصار عبد الله بن الزبير في مكة، كان سنة (١٠) من الهجرة (٦٣١م)، وهذا خطأ؛ لأن ابن الزبير حوصر في مكة من قبل الأمويين أكثر من مرة الأولى كانت سنة (٦٤هـ/ ٦٨٣م)، على يد (مسلم بن عقبة المُرِّي)، والثانية سنة (٧٣هـ/ ٦٩٢م) على يد (الحجاج بن يوسف الثقفي) وقد قُتل ابن الزبير في هذه السنة «الكامل في التاريخ ٤/ ١٢٣، ٣٤٨».

(٣) أي: أنهم يقطعون عراقيب فيول العدو بسيوفهم. فقد جاء في «لسان العرب ٢/ ٨٣»: «وعَرْقَب الدَّابة، قطع عرقوبها.. والعُرْقُوب، عصب مؤثر خلف الكعبين».

(٤) المقصود به، السلطان «محمد تغلق شاه».

الصور والتماثيل ولم يبق، إلا ما هو داخل البحار من القليل، الشاذر[(١)]، النادر الذي لا حكم له، ولا حِلْم يُلِمّ يحفز هذا السلطان، حتى يستكمله، ويغسل بالسيف ما بقي /٣١/ منه، فتضوعت[(٢)] أندية الهند[(٣)] من ذكره بأطيب من طيبها، وتحلى زمانه بها، بأعلى قيمة من جواهرها، وهو اليوم جامع ذيول تلك الأقطار، وماسك نطاق البراري، والبحار، وإذا قيل اليوم سلطان الهند، لا يطلق على سواه، ولا يصح هذا الاسم الكريم إلا على مسماه. قال الشبلي: وحقيق على مسلم، أن يدعو لسلطانٍ هذا في الله جهاده، وذلك معروفه، وتلك سجاياه.

وحكى لي محمد الخُجْندي أنَّ لهذا السلطان في كل أسبوع يوماً عَامّاً يجلس فيه للناس جلوساً عامّاً، وهو يوم الثلاثاء؛ يجلس في ساحةٍ عظيمة، متسعة إلى غاية يُضْرب له فيها جَتْر كبير سلطاني، يجلس[(٤)] في صدره، على تخَتٍ عال[(٥)] مُصَفَّح بالذهب، مُرصّع بالجواهر، ويقف[(٦)] أرباب الدولة حوله، يميناً، ويساراً، وخَلْفَه السِّلاح دَارِية، والجَمَدارية، ومَنْ حُكْمه بين أرباب الأشغال الخاصّة حُكْمُهم، وأرباب الوظائف على منازلهم، ولا يجلس إلا الخانات، وصدرُ جهان، والدُّبيران، يعني كتَّاب السِّرِّ، بين يديه، والحُجّاب وقوفٌ، ويُنادى مناداة عامة، أنه من كان له شكوى يحضر فيحضر كُلّ منْ له شكوى، أو حاجة يسأل السلطان فيها، فإذا حضروا، ووقف بين يديه، لا يُضرب ولا يُمنع، حتى يُنْهي إليه شكواه، ويَأمرُ السلطان فيه بأمره وأما بقية الأيام فإنه يجلس في طَرَفي كل نهار، ويركب في الخانات، والملوك، والأمراء جميعهم إلى بابه، ومن رَسْمه أنَّ أحداً لا يدخل عليه بسلاحٍ[(٧)] كبيرٍ، ولا سكينٍ صغيرة، ومن جاءه اعتبر قبل دخوله. ودون المكان، الذي

---

(١) الشاذر: أي المتفرق في كل وجه. راجع: «لسان العرب ٦/ ٦٦».

(٢) أي انتشرت سمعته، راجع في معنى (تضوع) «القاموس المحيط ٣/ ٥٩».

(٣) أي مجالس أهل الهند، فالنادي هو، مجلس القوم، ومجتمعهم «مشارق الأنوار ٢/ ٧».

(٤) يقول ابن بطوطة: وأكثر جلوسه بعد العصر، وربما جلس أول النهار، وجلوسه على مصطبة مفروشة بالبياض فوقها مرتبة، ويجعل خلف ظهره مِخَدة كبيرة وعن يمينه مُتَّكأ، وعن يساره مثل ذلك، وقعوده كجلوس الإنسان للتشهد في الصلاة، وهو جلوس أهل الهند كلهم» «الرحلة ٤٤٣».

(٥) ويقال له: (سرير الملك)، «وهو» منبر من رخام بصدر إيوان السلطان الذي يجلس فيه «التعريف ٢٧٣»، و«العصر المماليكي ٤٢٢».

(٦) راجع هيئة وقوف أرباب الدولة حول السلطان في «رحلة ابن بطوطة ٤٤٣ـ ٤٤٥».

(٧) يقول ابن بطوطة في «الرحلة ٤٤٢ـ ٤٤٣»: «ودار السلطان بدِهلي تُسمى (دار سَرَى) ولها أبواب كثيرة»، كما ذكر أن أهل الأنفار، والأبواق، والصرنايات يجلسون على الأبواب: الأول، والثاني، والثالث، فإذا جاء أمير، أو كبير ضربوها، وقالوا: جاء فلان ابن فلان. كما ذكر أنه يوجد في خارج =

يجلس فيه سبعة أبواب بعضها داخل بعض، وعلى الباب الأول البرَّاني منها رجلٌ معه بُوق، فإذا جاء أحدٌ من الخانات، أو الملوك، أو أكابر الأمراء، نُفِخ في البوق إعلاماً للسلطان بأنَّه قد جاءه كبير، ليكون دائماً على تَيَقُّظٍ، واستعداد من أمره. ومن جاء به كائناً مَنْ كان يترجَّلُ من الباب الأول البرَّاني، ويمشي إلى أن يدخل السَّبْعة الأبواب، إلى حضرة السلطان، وثَمَّ من شرف بالإذن له، بأن يَعْبُرَ راكباً / ٣٢/ إلى الباب السادس، ولا يزال البوق عَمّالاً إلى أنْ يُقارب الدّاخل البابَ السابعَ. ويجلس على ذلك الباب كُلُّ مَنْ دخل إلى أنْ يجتمعوا، فإذا تكامل المجيء أُذِنَ لهم في الدخول، فإذا دخلوا جلس حوله من له أَهْلِيَّة[١] الجلوس، ووقف سائرهم، وقعد القضاة، والوزراء، والدُّبَيْران، كُتّابُ السِّرِّ؛ وهم الموقِّعون[٢] إلى جانبٍ مِنْ المكان، لا يقع فيه نظرُ السلطان عليهم، ومُدَّتِ الأَسْمِطَة[٣]، وقدّمت الحُجّابُ القِصَصَ[٤]، ولكل طائفة حاجب يرفع قِصَصَهم، وحاجاتهم على يده. ويقدّمَ جميعُ الحجّابِ القِصَصَ إلى حاجبي صاحِبِهِ، وهو الحاجبُ الخاص، المُقَدَّمَ على الكلِّ، فَيَعْرِضها

= الباب الأول الجلادون، الموكلون بضرب أعناق من يأمر السلطان بقتلهم، ويوجد دِهليز كبير يفصل بين البابين، الأول، والثاني في دكاكين مبنية من جهتيه، يجلس فيها النَّوْبة من حُفَّاظِ الأبواب، وبين الباب الثاني، والثالث دكَّانة كبيرة، يجلس فيها النوبة من حفاظ الأبواب، وبين الباب الثاني، والثالث دكانة كبيرة، يجلس فيها نقيب النقباء، أما الباب الثالث ففيه دكاكين يقعد فيها كتَّاب الباب.

(١) جاء في «كتاب التعريفات ٤١»: «الأهلية، عبارة عن صلاحية لوجوب الحقوق المشروعة له، أو عليه».

(٢) جاء في «لسان العرب ١٠/ ٢٨٨»: والتَّوقيع، ما يُوَقَّعُ في الكتاب، ويُقَال: «السر»، وجاء في كتاب «زبدة كشف الممالك» (١٠٠) «وبديوان الإنشاء عدة موقعين، وهم قسمان: قسم يسمون موقِّعِي الدَّست، هم أَجَلُّهم، ولهم مراتب، شيء أعلى من شيء، وقسم يسمون مُوَقِّعِي الدرج، ولهم أيضاً مراتب». كما ذكر صاحب «الصبح ٣/ ٤٨٧ـ ٤٨٨، ٥٢٢، و١٤/ ٣٢٢»، ثلاث وظائف للموقعين هي: موقع القلم الدَّقيق وهو ككاتب السر، أو كاتب الدست ورتبته تلي رتبة صاحب ديوان الإنشاء والمكاتبات، يجالس الخليفة أكثر أيام الأسبوع، يُذاكر في كتاب الله تعالى، وأخبار الأنبياء والخلفاء، ويقرأ عليه ملح السير، ويُقَوِّي يده في تجويد الخط، ثم هو الذي يجلس إلى جانب وزير السيف يوقع بما يأمر به في المظالم، وموقع القلم الجليل، وذكر أنها تقوم مقام (كاتب الدرج) وهو الذي يكتب بتنفيذ ما يُوَقِّع به صاحب القلم الدقيق وبَسْطِه، وموقع الحكم. أما «المقريزي» فقد ذكر في «الخطط ١/ ٤٠٢» وظيفة التوقيع بالقلم الدقيق، ووظيفة التوقيع بالقلم الجليل فقط.

(٣) الأَسْمِطة: هي موائد الطعام «الصبح ٣/ ٥٢٣».

(٤) القِصَص: هي طلبُ، وشكايات، والتماس الناس، التي ترفع إلى السلطان، راجع «الصبح ٣/ ٤٨٧ـ ٤٨٨»، وقد جاء في كتاب «العصر المماليكي ٤٦٢» أن القصص ترفع إلى حضرة السلطان، عن طريق موظف خاص اسمه (قصة دار).

على السلطان، ثم إذا قام السلطان، جلس إلى كاتب السِّرِّ، فأدى إليه الرسائلَ بما رَسَمه السلطانُ في ذلك فَيُنَفِّذها. ثم إذا قام السلطان من المجلس. جلس في مجلس خاص، واستدعى العلماءَ، فيحضر من له عادَةٌ فيجالِسَهم ويؤانِسَهم، ويأكلُ معهم، ويتحدّث هو وإيّاهُمْ. وهم بِطَانَتُه[١] الخاصّة، ثم يأمر بالانصراف، ويخلو بالنّدماء والمغاني، تارة يُنادم بالحديث، وتارة يُغَنَّى له، وهو على كل حال في المحافِلِ، والخَلَوات، عفيف الخَلْوَة، طَاهِرُ الذَّيْلِ، يُحَاسِب نَفْسَه على الحركاتِ والسُّكون، ويُراقب اللهَ في السِّرِّ، والعلَن، لا يرتكب مُحَرَّماً، ولا يَفْسَحُ فيه.

قال لي الشِّبْلي: حتى أنه لا يوجد بدِهْلي خمر بالجملة الكافية، لا ظاهراً، ولا مُضْمراً لتشديد هذا الرجل فيه[٢]، وإنكاره على من يعانيه[٣]، قال: مع أَنَّ أهلَ الهند لا رغبة لهم في الخمر، ولا في المسكرات استغناءً بالتَّنْبُول[٤]، وهو حلال طيب لا شُبْهة فيه، مع ما فيه من أشياء لا يوجد في الخمر بعضها، وهو أنه يُطَيِّبُ النَّكْهَةَ، ويُصَرِّف الأطعمة، ويبسط الأنفُسَ بسْطاً عظيماً، ويورثها سروراً زائداً مع ثبوت العقل، وتصفية الذهن، ولذاذة الطَّعْم. فأما أجزاؤه؛ فهو ورق التَّنْبُول، والفُوْفَل[٥]،

---

(١) بطانته: أي أصحابه، «القاموس المحيط ٤/ ٢٠٤».

(٢) يقصد، السلطان (محمد تغلق شاه).

(٣) يعانيه: أي يهتم به. راجع «القاموس المحيط ٤/ ٣٦٩».

(٤) التَّنْبُول، أو التَّانبول: يُعرف بـ«التُّنْبُل»، أو (تامول)، أو (شاه صيني) أو (بان)، طعم ورقه، طعم القرنفل عطري حريف، من الفصيلة (الفلفلية)، من نوع (الفلفل)، لا ثمر له، تستعمل أوراقه (مضغة)، وبعض الأمم مثل (الهند)، و(الملايو) تضيف إليه جوز (الفوفل)، و(الجير) الحي، و(القرفة)، و(الكات)، ويستعملونه مكيفاً، مهيجاً للقوة الجنسية، ناتجاً للشهية، ويستعمل الآن في (إندونيسيا) مضغة تصبغ الفم والأسنان بلون أحمر، وهو المكيف الوطني هناك. وهو من نوع الشجر المتسلق المداد، دائم الخضرة، يعمر خمسين عاماً، يغرس، كما تغرس دوالي العنب، يصنع له عريش من القصب أو يغرس مجاوراً لشجر النارجيل، فيتسلق عليه، وورقه كبير الحجم بيضاوي الشكل غير متساوي الجانبين، كان (التنبول) مدرجاً في سجل الأدوية الرسمية البريطانية (الدستور العقاري) British Pharma Copae لكنه ألغي، لأنه ليس علاجياً بل مقوٍّ وقتياً، وَكَيِّف، يسبب استعماله التعود عليه والانهيار العصبي بعد زمن. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١/ ١٣٣» و«إحياء التذكرة ١٩٥ـ ١٩٦»، و«نزهة الخواطر ٩/ ٢٥»، و«حضارة الهند ٧٩».

(٥) الفوفل: نخلة، مثل نخلة النارجيل، تحمل كبائس، مثل التمر، يصل عدده إلى مائة حبة؛ منه أسود، ومنه أحمر، في طعمه شيء من حرارة، ويسير من مرارة، بارد، شديد القبض، مقو للأعضاء، يكثر في الهند، وسيلان، والملايو، والصين، كما يزرع في مصر وتجود زراعته في منطقة أسوان «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية٣/ ١٦٩ـ ١٧٠»، و«نهاية الأرب ١١/ ١٣٠»، و«نزهة الخواطر ٩/ ٤٢»، و«إحياء التذكرة ٩٧ـ ٤٩٩».

ونُوْرَةٌ[1] تُعْمَل خاصّة[2].

قال: ولا يَعِدّ أهلُ تلك البلاد كرامةً أبلغ منه، فإنه إذا ضَيَّف الرَّجُل الآخر وأكرمه بما /٣٣/ عسى أنْ يكون من أنواع الأطعمة، والأشوية، والحلاوات، والأشْرِبة، والرَّياحينِ، والطِّيْبِ، ولا يحضر التَّنْبُول، لا يُعْتَدُّ له بكرامة، ولا يُعَدُّ أنه أكرمه. وكذلك، إذا أراد الرئيس إكرام أحدٍ ممن يحضره يناوله التَّنْبُول[3]. قلت: وهذا نظير مِسْك الأيَاق في ممالك أولاد جنكزخان[4]؛ والأياق، هو قَدَح خَمْرٍ أو تَمْرٍ يُمسِكُه الكبيرُ، لِمَن أراد إكرامه، أو الرجلُ، لِمَن أراد خِدْمتَه، وهو أبلَغُ خدمةً عندهم، وسيأتي بمشيئة الله تعالىٰ ذكر هذا في موضعه.

وحَدَّثني العلامة سِرَاجُ الدِّين أبو الصفا عمر الشبلي، أنَّ هذا السلطان مُتَطَلِّعٌ إلى معرفة أخبار ممالكه، وبلاده وأحوال مَنْ حوله من جنوده، ورعاياه، وأَنَّ له ناساً يُسَمَّوْنَ المُنْهين[5]، وطبقاتهم مختلفة؛ فمنهم من يُخالِط الجند، والعامة، فإذا عَلِمَ ما يجب إنهاؤه إلى السلطان أنهاه إلى أعلى طبقةٍ منه، ثم يُنْهيها ذلك المنتهى إلى آخَرَ الأعْلَى فالأَعْلَى إلى السلطان. فأما أخبار البلاد النائية، فإن بين حضرة السلطان،

---

(١) نورة: يقال له أيضاً (الكلس)، و(الجير) أي كلس الصدف، وإذا لم يأخذ الكلس لم يحسن طعمه، ولم يخامر العقل»، راجع أيضاً «نفس المصدر ج٤/ ٧٦ـ ٧٧».

(٢) لأن كلاً من (التنبول)، و(الفوفل) مزدرع، أما (النُّورة) فتُصنع من الحجر، الذي يُحرق ويسوى منه الكِلس، أو من صدف الحيوان البحري، الذي يقال له (فروقس)، أو من رديء الرخام. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/ ٧٦»، و«لسان العرب ٧/ ١٠٣».

(٣) يذكر ابن بطوطة في «رحلته ٤٥٩»، أنه عندما قدم أحد الأمراء العباسيين، وهو غياث الدين محمد بن عبد القاهر بن يوسف بن عبد العزيز ابن الخليفة المستنصر بالله، على السلطان، أخذ التنبول بيده وأعطاه إياه، وهذا أعظم ما أكرمه به، فإنه لا يفعله مع أحد.

(٤) جنكز خان: اسمه (تمرجين)، مجهول النسب، عمل في بداية حياته لدى (أزبك خان) حتى غضب عليه وطرده من خدمته، بسبب وشاية بعض أقرانه، فأخذ بجمع الأتباع، والأنصار، فانضم إليه بعض الأوزبك، وقدَّمه المغول عليهم سنة (٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م) فحارب (أزبك خان) وقتله، وملك بلاده، هزم (الخَطَا)، وهزم (خُوارِزْم شاه) وقتله، فاستولى على الممالك؛ تركستان، وبلاد ما وراء النهر، وبلاد الجبل، وخراسان، وأذربيجان، والعراق. دون قوانينه وتشريعاته التي عرفت بـ(الياسا) فتمسك بها أبناؤه من بعده، يقول عنها ابن كثير: «وأكثرها مخالف لشرائع الله تعالى، وكتبه». توفي في رمضان سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) بعد أن خلَّف ستة من الأبناء.

راجع أخباره وأخبار أبنائه في: تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٤٣ـ ٢٤٤، والبداية والنهاية ١٣/ ١١٧ـ ١٢١، والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٦٨، وشذرات الذهب ٥/ ١١٣.

(٥) المنهين: جاء في «لسان العرب ٢٠/ ٢٢٠»: «الإنهاء، الإبلاغ، وأنهيت إليه الخبر. فانتهى، وتناهى أي بلغ، وتقول: أنهيت إليه السهم أي أوصلته إليه، وأنهيت إليه الكتاب، والرسالة».

وبين أمهات الأقاليم أماكن مقاربة بعضها من بعض شبيهة بمراكز البريد[١] في مصر والشام، ولكن هذه قريبة المدى بين المكان، والمكان بقدر أَرْبعِ غَلْوَاتِ نَشَّاب أو دونها، وفي كل مكانٍ عَشْرة سُعَاة[٢]، ممن له خِفَّةٌ في الجَرْي، يحملُ الكُتبَ بَيْنَه وبين من يليه، إذا أخذ أحدُهم الكتابَ جرى به جَرْياً قوياً بأشَدِّ ما يمكنه أنْ يشتدَّ، وأقوى ما يمكنه أن يجري إلى أن يوصله إلى الآخر، فيجري كالأول، إلى المكان الذي يليه ويرجع حامله إلى مكانه على مَهْلِه، فيصل الكتابُ مِن المكان البعيد إلى المكان البعيد في أقرب الأوقات، أسرع من البريد والنَّجَّابة[٣].

قال: وفي كل مكان من هذه الأماكن المركزة، مساجد تقام بها الصلوات، ويأوى إليها السفار، وبرك ماء للشرب، وأسواق لبيع المآكل، وعلوفة الدواب، فلا يكاد يحتاج إلى حَمْلِ ماءٍ، ولا زاد، ولا خيمة.

---

(١) مراكز البريد: هي «الأماكن التي تقف فيها خيل البريد لتغيير خيل البريدية فيها فرساً بعد فرس» (الصبح ١٤/ ٣٧٢) وجاء في «التعريف» أن البريد أربعة فراسخ، والفرسخ، ثلاثة أميال، والميل ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمي، والذراع أربعة وعشرون إصبعاً، والإصبع أربع شعيرات ظهر واحد إلى بطن أخرى، والشعيرة أربع شعرات من ذنب بغل. ومراكز البريد في عصر العُمري، مؤلف (مسالك الأبصار)، لم تكن على هذا القدر من المسافات؛ بسبب تفاوت الأبعاد، تارة لبعد الماء، وتارة للأنس بقرية، كان البريد معروفاً في عهد الأكاسرة؛ ملوك الفرس، والقياصرة؛ ملوك الروم. وفي الإسلام، أول ما نُظِّم البريد في عهد (معاوية بن أبي سفيان)، عندما استقرت له الخلافة، واحتاج إلى سرعة وصول أخبار البلاد من مختلف أطرافها. فوضع له بعض دهاقين الفرس، وأهل أعمال الروم (البُرُد) واتخذوا لها بغالاً بإكُفٍ يسافر عليها البريد، وقيل إن ذلك تم في عهد (عبد الملك بن مروان). وفي نهاية الدولة الأموية، بسبب ما ساد البلاد الإسلامية من اضطرابات صاحبت سقوط دولة بني أمية، وقيام دولة بني العباس، انقطع البريد، ولم يُشَدّ له سرجٌ، أو تلجم له دابة طيلة أيام «السفاح»، و«المنصور». وفي أيام «المهدي» نظم «البريد» ليأتيه بأخبار ابنه «الرشيد» الذي كان غازياً لبلاد الروم، فقطع البريد بعد قفول الرشيد من جهة الروم، واستمر مدة خلافة المهدي. وفي أيام «الرشيد» نظَّم «يحيى بن خالد البرمكي» البريد على ما كان عليه أيام بني أمية فرتبت البغال في المراكز، وكان لا يُجَهِّزُ عليها إلا الخليفة، أو صاحب الخبر، واستمر البريد طيلة أيام الدولة العباسية قطعه (بنو بويه) كي يخفوا عن الخليفة أخبار تحركاتهم، واستمر الأمرُ كذلك أيام السَّلاجقة، الذين استبدلوا البريد، بالرسل بينهم على الخيل، والإبل، واتخذ الزَّنكيون النَّجَّابة، وأُعِدَّت لهم البُخْتُ المُنْتَخبة، وكذلك الأيوبيون، و«المماليك» حتى أيام الملك «الظاهر بيبرس»، فأعاد تنظيم البريد على ما كان عليه في الدولة الأموية. راجع تفصيل ذلك في «التعريف ٢٣٩ـ ٢٤٢»، و«الصبح ١٤/ ٣٦٦ـ ٣٧٠» و«نظم دولة سلاطين المماليك ١/ ٦٠».

(٢) سعاة: جاء في «لسان العرب ١٩/ ١٠٧»: السَّعْيُ العدو، وسعى، عدا، وسعى إذا مشى، وسعى إذا عمل، وسعى إذا قصد.

(٣) النَّجَّابة: النَّجيب من الإبل: العتيق، الذي يُسابق عليه، والنَّجِيْبُ من الإبل أيضاً القوي، الخفيف السريع، والمقصود بالنَّجَّابة، الذين يستخدمون هذا النوع من الإبل لنقل الأخبار والرسائل، أو إبلاغ المهمات، راجع «لسان العرب ٢/ ٢٤٥»، و«التعريف ٢٤١».

قال: ومن جملة عناية هذا السلطان، جَعْلُ بين قاعدتي ملكه، وهما دِهْلي، وقُبَّة الإسلام في هذه الأماكن /٣٤/ المعدَّة لإبلاغ الأخبار طبولٍ، فحيثما كان في مدينة وفُتح باب الأخرى، أو أُغلق تَدُقّ الطبْلُ، فإذا سمعه مجاوِرهُ دَقَّ، فَيُعْلَمُ خَبَرُ فتحِ المدينة التي هو غاب عنها، وغَلْقه في وقت الحاضر كل يوم بنوبة.

ولهذا السلطان مهابةٌ تسقط لها القلوبُ، مع قربه من الناس، ولِينهِ في كلامه وحديثه، وكل من أراد الوصول إليه، وصل إليه لا يُبْعده عِظَمُ حِجَابٍ[١]، ولا عموم حُجَّاب، وقد أَدَرّ الله في أيامه الأرزاق، وكَثَّر المواد، وضاعف النعم، على أن الهند ما زال موصوفاً بالرخاء، معروفاً بالسخاء. حدثني الخُجُنَدِي، قال: أكلت أنا وثلاثة نفر رفاق لي في بعض بلاد دِهْلي لحماً بقرياً وخبزاً وسمناً حتى شبعنا بِجِيتل وهو أربعة فلوس[٢].

(١) حِجَاب: الحِجَاب السِّتْر، والحجاب اسم ما احتجب به، وكُلُّ ما حال بين شيئين حِجَاب والجمع حُجُب، واحْتَجَبَ المَلِكُ عن الناس، ومَلِكٌ مُحَجَّبٌ» لسان العرب ١/ ٢٨٩».

(٢) فلوس: الفِلس معناه في اللاتينية، كيس النقود وقد أخذته اليونان من اللفظ اللاتيني(Follis) وأخذته العرب من اليونان، وقد ذكر المقريزي، في «إغاثة الأمة ٦٦ـ ٧٢»: أن سبب ضربه، هو أنه كان في المبيعات مُحَقَّرات يَقِلُّ ثمنها عن درهم، أو جزء من الدرهم، فهي لا تستحق أن تُباع بأحد النقدين؛ الذهب أو الفضة، فوضعوا إزاءها نحاساً يضربون منه قطعاً صغاراً سُمِّيَت (فلوساً)، اشتهرت في مصر، والشام، وعراقي العرب، والعجم، وفارس، والروم قديماً، وضُربت في مصر أيام الكامل الأيوبي (٦١٥ـ ٦٣٥هـ/ ١٢١٨ـ ١٢٣٧م) ثم تتابع ضربها بعد ذلك، يقول المقريزي: «وكانت الفلوس أولاً تعد في الدرهم الكاملي ثمانية وأربعون فلساً، ويُقَسّم الفلس أربع قطع تقام كل قطعة مقام فلس. يُشترى بها ما يُشترى بالفلوس، فيحصل بذلك من الرِّفق لذوي الحاجات ما لا يكاد يوصف». وبعد سنة (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م)، أصبح كل فلس يزن (مثقالاً) والدرهم يُعَدُّ أربعة وعشرون فلساً وفي سنة (٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م) وُزِنت الفلوس بالميزان لِخِفَّتِها، فأصبح الفلس زنة درهم، ثم أصبح الرَّطل من الفلوس بدرهمين، ويذكر القلقشندي في «الصبح ٣/ ٤٣٩ـ ٤٤٠»، أنه أحدثت في سلطنة (حسن بن محمد بن قلاوون) سنة (٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م)، فلوس اشتهرت بالجُدد، زِنَة كل فلس منها مثقال، وكل فلس منها قيراط من الدرهم، يقول القلقشندي: «فجاءت في نهاية الحسن، وبطل ما عداه من الفلوس، وهي أكثر ما يَتَعامل به أهل زماننا» ولكن هذه الفلوس أدخل عليها ما قلل قيمتها بعد ذلك، حيث أنقص وزنها عن المثقال، فأصبح منها ما هو دون الدرهم، وصار تكوينها غير مستدير، فأصبحت توزن كل مائة وثمانية عشر رطلاً بالمصري بمبلغ خمسمائة درهم، وقد حمل الناس الفلوس المضروبة من الديار المصرية، إلى الحجاز، واليمن، وغيرها من الأقاليم. وهناك نوع من الفلوس غير مطبوع، عبارة عن نحاس مُكَسّر من الأصْفَر والأحمر، يقال لها (العتق)، وهي ما أشار إليها المقريزي، بأن زِنَة الرطل منها بدرهمين، ويذكر القلقشندي أنه عندما عملت الفلوس الجدد، استقر كل رطل منها بدرهم ونصف، وعندما ارتفعت أسعار النحاس، نفذت الفلوس من الديار المصرية، وخُلط النحاس المكسور بالفلوس الجدد، وراج معها على مثل وزنها.

وسأذكر معاملاتهم، ثم ذكْر الأسعار عندهم؛ لأنها مرتبة على المعاملة. وبها تعرف.

ولقد حدثني الشيخ مبارك قال: اللّك الأحمر مائة ألف تَنْكَة، واللّك الأبيض مائة ألف تَنْكة. تنكة الذهب، وهي المسمَّاة عندهم التَّنْكَة الحمراء ثلاثة مثاقيل، والتَنْكة النُّقْرة(١)، وهي الفضة ثمانية دراهم فَشْتكانِيّة(٢). وهذا الدرهم الفشتكاني(٣) هو وزن الدرهم النُّقْرة. معاملة مصر والشام، وجوازُه جوازه، لا يكاد يتفاوت ما بينهما، وهذا الدرهم الفشتكاني، هو أربعة دراهم سلطانية وهي المسماة الدكَّانية(٤) - وهذا الدرهم السلطاني يجيء ثلث درهم، سشتكاني - وهو درهم ثالث يُتَعامل به في الهند - وجوازه بنصف وربع درهم هستكاني، ولهذا الدرهم السلطاني نصْف، يُقال له: يكاني، وهو بجيتل واحد، ولهم درهم آخر اسمه دوازدهاكاني جوازه بدرهم ونصف درهم هستكاني، ودرهم آخر اسمه شازردكاني، جوازه بدرهمين، فحينئذٍ دراهم الهند، ستة: شازردكاني، ودوازديكاني، هستكاني، سشتكاني، سلطاني، ويكاني. أصغرها الدرهم السلطاني، وهذه الدراهم الثلاثة كلها مما يُتَعامل به، والمعاملات بينهم بها دائرة، والأكثر بالدرهم السلطاني، وهو الذي تقديره ربع درهم من نقد مصر والشام، وهذا الدرهم السلطاني، هو بثمانية فلوس، والثمانية فلوس هي جيتلان، كل جيتل أربعة فلوس، فيكون الدرهم الهستكاني، الذي هو مثل درهم النّقْرة مُعَامَلة مصر والشام / ٣٥/ اثنين وثلاثين فِلْساً.

ورطلهم يُسمى سير، وهو وزن سبعين مثقالاً عنها بصَنْجَة(٥) الدراهم بمصر، فإنه

---

(١) النُّقرة: النُّقرة، من الذهب والفضة، القطعة المُذابة، وقيل مَاسُبك مجتمعاً والنُّقرة السبيكة، والجمع نقار. «المخصص ١٢/ ٣٠»، و«لسان العرب ٧/ ٨٧».

(٢) جاء في «نزهة الخواطر ٩/ ٣٧٨»: فليعلم أن النقود التي كانت مروجة أيام المملوكين، وفيما بعدهم كانت على ثلاثة أقسام: الذهبية، ويسمونها (تَنْكة) وزنها (تولة واحدة) غالباً، والفضية، يسمونها أيضاً (تنكة)، وزنها أيضاً كان (تولة واحدة)، والنحاسية، ويسمونها (جيتل) بكسر الجيم، وزنها (تولة واحدة)، وقيل: تولة وثلاثة أرباع منها، وكأن (التَّنْكة الفضية) واحدة منها، تعدل خمسين جيتلاً.

(٣) يبدو أن هذا الدرهم كان يعرف باسمين هما: فشتكاني وهستكاني، خاصة وأن المؤلف بعد أن استعرض دراهم الهند ذكر أنها تنحصر في ستة دراهم. ذكر منها الدرهم (الهستكاني) دون (الفشتكاني) وقد ورد ذلك في جميع النسخ، ومثله في ذلك مثل الدرهم (السلطاني) الذي عُرف أيضاً باسم آخر هو (الدّكاني). وكذلك، الدرهم (دواز دهكاني) الذي أطلق عليه أيضاً (دوازديدكاني) هذا أمر. ولعله الأقرب. أما الأمر الآخر، فهو أن يكون قد وقع تصحيف في الاسم لتشابه الاسمين في الرَّسم، فاستبدلت الهاء فاء، أو العكس.

(٤) جاء في «الصبح ٥/ ٨٤»: «الدرهم السلطاني، ويُسَمَّى (وكاني) وهو ربع درهم من الدَّراهم المصرية.

(٥) صنجة أو سنجة: بالفارسية (سنكة) أي الحجر، وهي وزن، ومعيار ولضبط أوزان السكة الإسلامية، =

مائة ودرهمان وثلثان، وكل أربعين سيراً مَنٌّ واحدٌ. ولا يعرف عندهم الكيل.

وأما الأسعار، فإنَّ أوسطها القمح، كُلُّ مَنٍّ بدرهم ونصف هستكاني، والشعير كل مَنّ بدرهم واحد منه، والأرز كل مَنٍّ بدرهم ونصف وربع منه، إلا أنواعاً معروفة من الأرز، فإنها أعلى من ذلك. والحمّص كل مَنَّين بدرهم واحد هستكاني، ولحم البقر والمَعْز سعرٌ واحدٌ، ويباع كل ستة أسيار بدرهم سلطاني، وهو ربع درهم هستكاني، والغنم كل أربعة أسير بدرهم سلطاني، والأوِزُّ كل طائر بدرهمين هستكانية، والدّجاج كل أربعة طيور بدرهم هستكاني، والسّكّر كل خمسة أسيار بدرهم هستكاني، والنبات(١) كل اربعة أسيار بدرهم منه.

ورأس من الغنم الجيدة السمينة الفائقة بتَنْكَة واحدة عنها ثمانية دراهم هسْتكانية، والرأس البقر الجيد بِتَنْكَتين، وربما كان بأقل، والجاموس كذلك، وأكثر مأكلهم لحوم البقر والمعز، قلت للشيخ مبارك: هذا لِقلة الغنم؟ قال: لا، ولكن عادة، وإلا فالأغنام لا تُعَدُّ في كل قرية في الهند إلا بالآلاف [المُؤلفة] والدجاج كل أربعة طيور فائقة بدرهم واحد بالمصري، وأما الحمام والعصافير وأنواع الطير فبأقل الأشياء ثمناً.

وأما أنواع الصيد، من الوَحْش(٢) والطير بها فكثير، وبها الفَنَك(٣)، والْكَرْكَدَن، وإنما فِيَلة الزّنج أجل.

وأمارتهم في الملبوس لبسهم البياض، وثياب الجوخ(٤)، وثياب الصوف إذا

= اتخذ عبد الملك بن مروان صِنَجاً من زجاج تستحيل على الزيادة، أو النقص. «لسان العرب ٣/ ١٣٦»، و«كتاب النقود الإسلامية» ضمن كتاب «تعريف النقود، والدواوين في العصر الأموي» للدكتور حسان حلاق ١١٧، والموسوعة العربية الميسرة ١١٣٢».

(١) يقصد به سكر نبات، وهو ما يسمى عند الأطباء (سكر طبرزد)، وهو سكر صلب شديد يسميه أهل مصر (السكر نبات) «شرح أسماء العُقّار ٣١».

(٢) الوحش: كل شيء من دواب البر، مما لا يُستأنس، مؤنث، وهو وحشي والجمع وحوش. «لسان العرب ٨/ ٢٦١».

(٣) الفنك: اسم دُويبة. تشبه (الثعالب) صغير الحجم، جميل الشكل، واسع العينين، وله أذنان قائمتان، عظيمتا الحجم، صوته كالثعلب، وهو من حيوانات الصحاري يُسمى بالإنجليزية (فِنك) Fennec . له (وبر) أبيض خالطه حمرة، يتخذ من جلوده الفراء، ويعتبر من أطيب أنواعه، فهو أبرد من السَّمُّور وأحر من السنجاب، وكثيراً ما يُجلب من بلاد الصقالبة. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/ ١٦٨»، و«الصبح ٢/ ٤٩»، و«إحياء التذكرة ٤٩٦» .

(٤) الجوخ: جمعه أجواخ: وبالتركية (جوقه)، وهي نسيج من صوف صفيق يُكتسى به، يقول المقريزي في «الخطط ٢/ ٩٨»: «أدركت الناس، وقلما تجد فيهم من يلبس الجوخ، وإنما يكون من جملة ثياب =

جُلب إليهم، يباع بأرفع الأثمان، ولا يَلْبس الصَّوْفَ إلا أهلُ العلم، والفَقْر ويلبس السلطان، والخانات، والملوك، وسائر أرباب السيوف نتريان وتَكْلاوات[١] وأَقْبِيَة إسلامية[٢] مُخَصَّرة الأوساط خُوارِزْمِيّة[٣]، وعمائم[٤] صغار، لا تَعَدّى العمامة خمسة ستة أذرع، ومن اللانس الرفيع، وحدثني الشريف ناصر الدين محمد[٥] الحسيني الكارمي المعروف بالزُّمُرّدي، وهو ممن دخل إلى الهند مَرَّتين وأقام عند السلطان قطب الدين[٦] بدهلي، أن غالب /٣٦/ لباسهم البياض، وغالب جمعات[٧] أكسيتهم التترية[٨]

= الأكابر جوخٌ لا يلبس إلا في يوم المطر، وإنما يلبس الجوخ من يرد من بلاد المغرب، والفرنج، وأهل الإسكندرية، وبعض عوام مصر، فأما الرؤساء، والأكابر، والأعيان فلا يكاد يوجد فيهم من يلبسه، إلا في وقت المطر فإذا ارتفعت المطر نزع الجوخ» ثم ذكر بعد ذلك أنه عندما غلت الأسعار دعت الضرورة أهل مصر إلى ترك أشياء مما كانوا فيه من الترف. وصار الناس يلبسون الجوخ» راجع في معنى الجوخ «محيط المحيط ١٣٤»، «وتكملة المعاجم العربية ٢/ ٣٢٨».

(١) التكلاوات: ثياب تلبس في الهند ومصر، فوق (الأقبية) التترية ويلبس فوقها القباء الإسلامي «الصبح ٤/ ٤٠»، و«الخطط ٢/ ٢١٧»، و«الملابس المملوكية ٤٠».

(٢) أقبية إسلامية: لباس خارجي، للرجال، يُلْبس فوق التَّكلاوات، فارسي الأصل، سُمي بذلك لتقبُّضه، وقِصَره، قبوت الشيء جمعته منه (اليَلْمَق) فارسي معرب، و(الفَرُّوج) مشقوق من الخلف، ومنها ما هو طويل، ومنها ما هو قصير إلى الركبة، مفتوح عند الرقبة، كانت له أكمام ضيقة فجعلها المعتصم فضفاضة، وأكمامها عريضة بلغت ثلاثة أذرع، «المخصص ٤/ ٨٦»، و«٤٢/ ٤٣»، و«الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي ٢٨٠ـ ٢٨٤».

(٣) خُوَارِزمية: نسبة إلى (خوارزم) إقليم منقطع عن (خراسان)، وعن (بلاد ما وراء النهر) يحيط به من الغرب بعض بلاد الترك، ومن الجنوب خراسان، ومن الشرق بلاد ما وراء النهر، ومن الشمال بلاد الترك أيضاً. يقع في آخر نهر جَيْحون على جانبيه، قصبته تُسمى (خوارزمية) خربها النهر، وبنى الناس، لهم مدينة من ورائها، «كتاب تقويم البلدان ٤٧٦»، و«بلدان الخلافة الشرقية ٥٠٢».

(٤) العمائم: جاء في «المخصص ٤/ ٨٢»: أن العمامة، هي ما يُلاث على الرأس تكويراً.

(٥) لعله هو الذي أشار إليه «ابن حجر» في «الدرر ٤/ ٥١» بقوله: محمد بن الحسين الشريف، ولي توقيع الدَّست بمصر، لما ولي أبوه كتابة السّرّ بحلب، وكان يكتب من إنشاء أبيه، ولم يُسمع له بنظم، ولا نثر، وكانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة (٧٦٣هـ/ ١٣٦١).

(٦) هو الملك المؤيد قطب الدين مبارك شاه بن محمد الخلجي، استقر له الحكم سنة (٧١٧هـ/ ١٣١٧م)، بعد أن خلع أخاه (شهاب الدين)، ثم قتله مع بقية أخوته بعد حبسه معهم في مدينة (كواليار). قُتل على يد أكبر أمرائه (خسرو خان) في خامس ربيع الأول سنة (٧٢١هـ/ ١٣٢١م). «نزهة الخواطر» (١/ ١٥ـ ١٦، و٩/ ١٩١ـ ١٩٢).

(٧) جاء في «لسان العرب ٩/ ٤٠٥»: «فجمعت علي ثيابي أي لبست الثياب التي يبرز بها إلى الناس، من الإزار، والرداء، والعمامة، والدرع، والخمار، وجمعت المرأة الثياب، ليست الدِّرع ، والمِلْحفة، والخمار، كما جاء في «المصباح المنير ١/ ١١٨»، وأخذ (بجميع ثيابه) أي بمجتمعها.

(٨) التترية: نسبة إلى التتر، وهي شعوب انحدرت من أصل مُغْلي، ويختلف مدلول التتر باختلاف العصور. «دائرة المعارف الإسلامية ٤/ ٥٧٦ـ ٥٧٧».

مزركشة[١] بالذهب، ومنهم من يلبس مُطَرّز الكمين، بزركش[٢]، ومنهم من يعمل الطراز بين كتفيه، مثل المُغْل[٣]، وأقباعهم[٤] مربعة الإنبساط، مُرَصّعة بالجواهر، وغالب ترصيعهم بالياقوت، والماس، وتظفير شعورهم ذؤابات مَرْخِيّة، كما كان يفعل عسكر مصر والشام، ويُعْمل في الذؤابات[٥] شراريب[٦] حرير، وتشدّ في أوساطِهم المناطق من الذهب، أو الفضة، وأخفاف[٧]، ومهاميز[٨]، وأما السيوف، فلا تشدّ إلا في الأسفار، وأما في الحضر فلا تُشَدّ. وأما الوزراء والكتّاب فمثل زي الجند، ولكن لا يشدون المناطق، وبعضهم يرخى له عَذْبات[٩] أمامهم، مثل عذبات الصوفية، وأما القضاة، والعلماء فلبسهم فَرْجِيّات[١٠] شبيهات بالجندات، ودراريع[١١]

(١) مزركشة: بمعنى مطرزة، راجع «الملابس المملوكية ٤٢».

(٢) المقصود (بالزّركش) هنا، ما نُسج من الحرير، والذهب الخالص، وهو مستعار من الفارسية، «الصبح ٤/ ٤١»، و«الملابس المملوكية ٦١».

(٣) اسم عُرف به (التتر)، وانتشر في منغوليا، وآسيا الوسطى، وقد استعمله رسمياً جنكيز خان. «دائرة المعارف الإسلامية ٤/ ٥٧٦ـ ٥٧٧».

(٤) وأقباعهم: القبع، طاقية صغيرة، تُلْبس تحت العمامة. «الملابس المملوكية ٩٠».

(٥) ذؤابات: جمع (ذؤابة)، وهي الظفيرة من الشعر. «المصباح المنير ١/ ٢٢٦».

(٦) شراريب: جاء في «المحيط ٤٥٨»: أنها جمع (شَرَّاب)، وهي عند المولَّدين ضمَّة من خيوط يُعَلّق طرفها الواحد بالطربوش، وغيره، ويتدلّى طرفها الآخر.

(٧) أخفاف: جمع خُفّ، وهو ما لُبس في القدم، فارسي مُعَرّب، أصله في الفارسية (مُوزَة) وجمعها (مَوَازِجَة) يُقال للصغير منه، (الجُرْمُق)، وهي أنواع منها:
(الهِبْرِزِيّ)، وهي يمانية جيدة، و(الحَنْبَل)، و(المُوق). «المخصص ٤/ ١١٤»
وجاء في «محيط المحيط ٢٤٤ ـ ٢٤٥»: أن الخفّ «واحد الخِفاف، التي تلبس في الرجل سُمّي به لخفته، وهو شرعاً ما يستر الكعب، وأمكن به السَّفر، أو المشي فرسخاً فما فوق، والجُرمُوق ما يُلبس فوق الخف لحفظه من الوحل، ونحوه على المشهور، وقيل هو الخف الصغير» وللمزيد من المعلومات راجع «الملابس المملوكية ٦٣ـ ٦٤».

(٨) مهاميز: المِهْمَاز، آلة حديد تكون في رِجْل الفارس، فوق كعبه، فوق الخف، وما في معناهما، ومؤخّرَهُ إصبع محدد الرأس، إذا أصاب جانب الفرس وأسرعت في المشي، وجَدَّت في العدو، وهو تارة يكون من ذهب محض، وتارة من فضة، وتارة من حديد مطلي بالذهب، أو الفضة. «الصبح ٢/ ١٣٦»، و«الخطط ٢/ ٢١٧»، و«الملابس المملوكية ٦٤».

(٩) عذَبَات: جمع (عذبة)، والعَذْبة: هي طرف الشيء. «لسان العرب ٢/ ١٧٥»، و«القاموس المحيط ١/ ١٠٥».

(١٠) فرجيات: نوعٌ من الأقبية تتألف من ثوب واسع له كُمّان، وفيه شَقٌّ من خلفه، تصنع من الوبر، وتلبس في الشتاء، «المخصص ٤/ ٨٦»، و«الملابس العربية الإسلامية ٢٧٨ ـ ٢٨٠».

(١١) دراريع: جمع (دُرَّاعة)، ضرب من الثياب، وهي جبة مشقوقة القدم حتى أعلى القلب، ومزرورة بأزرار، وعرى ومنها أنواع لا تكون إلا من الصوف، «المخصص ٤/ ٣٦»، و«الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي ٢٥٥».

وأما عامة الناس فقُمُص[١]، وفرجيّات مقندَرة، ودراريع.

وحدثني الشِّبلي أن أهل دِهْلي، أهل ذكاء، وفطنة، فصحاء في اللسان الفارسي، والهندي، [ولهم] دقة أفهام، وصفاء أذهان، وغالبهم ينظمون الشعر بالفارسي، والهندي، ومنهم من ينظم الشعر بالعربي، ويجيد فيه، وكثير ممن يمدح السلطان منهم، ممن ليس لهم اسم في ديوانه، فيقبل عليهم، ويجيزهم.

قال لي الشبلي: وأحد دبيران السلطان له عادة أن يمدحه إذا تجدد له فتح، أو أمر كبير، ورسمه عليه أن يأمر بأن تُعدّ له أبيات قصيدته ويُعْطى بكل بيت عشرة آلاف تَنْكَة، وكثيراً مما يستحسن السلطان منه شيئاً أو يعلم له ضرراً، فما يأمر له بشيء مخصوص على التعيين، وإنما يأمره بأن يدخل إلى الخزانة، ليحمل ما أطاق فلما رآني عجبت مما يحكيه، من كثرة هذا الإنفاق، والبَسْطة، في المواهب، والإطلاق. قال: وهو مع هذه السّمعة المفرطة في بذل العطاء، لا ينفق نصف دخل بلاده.

وحدثني شيخنا فريد الدهر، شمس الدين الأصفهاني[٢]، قال: كان قطب الدين الشيرازي[٣] رحمه الله يُثْبت صحة الكيمياء[٤]، قال: فبحثت معه في بطلان الكيمياء،

---

(١) القُمُص: هو «الجلباب». «المخصص ٤/ ٨٤»
وجاء في «لسان العرب ٨/ ٣٥٠ ـ ٣٥١» القميص الذي يُلْبس، معروف مذكَّر، وقد يُعْنى به الدّرع فيؤنث، والجمع أَقْمِصَة، وقُمُص، وقمصان، وللمزيد من المعلومات عن القمص، راجع «الملابس العربية الإسلامية ٢٠١ـ ٢٠٨».

(٢) شمس الدين محمد بن عثمان الأصفهاني، المعروف بابن العجمي الحنفي، كان مدرِّساً بالإقبالية، حدّث بالمدينة النبوية، ودَرَّس أيضاً بالمدرسة الشريفة النبوية، وحَدّث بدمشق، وكان فاضلاً، وجمع منسكاً على المذاهب، «تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٣٥». ويذكر صاحب «الوافي بالوفيات ٨/ ٢٥٥» أنّه من مشايخ العمري قرأ عليه، وأخذ عنه الأصول.

(٣) قطب الدين الشيرازي: هو قطب الدين، محمد بن مسعود بن مُصْلح، الفارسي، الشيرازي، الشافعي، العلاَّمة، وُلِد في شيراز سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م. تعلّم مهنة الطب من والده، ومن عمه، ومن الزّكي البَركشائي، والشمس الكتبي، وعمل طبيباً بالمرستان، كما درس علم الهيئة والإرشادات على يد النصير الطوسي، سكن تبريز وأقرأ فيها العلوم العقلية، ودرس في دمشق الكشاف، والقانون والشفاء، وغيرها، كان من أذكياء العالم، ولَقّبه عند الفضلاء الشارح العلاَّمة. من تصانيفه: شرح المختصر، وشرح المفتاح للسكاكي، وشرح الكليات لابن سيناء، وشرح الإشراف للسهروردي، وله كتاب في الحكمة سماه غرة التاج. توفي في ٢٤ رمضان، وقيل ١٧ رمضان من سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م عن ست وسبعين سنة.
ترجمته في: ذيول العبر ٤/ ٢٥، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٧٠، والدرر الكامنة ٥/ ١٠٨، والسلوك جـ٢، ق١/ ٩٦، والنجوم الزاهرة ٩/ ٢١٣، والأعلام ٧/ ١٨٧ـ ١٨٨.

(٤) الكيمياء: لفظ عربي، اشتقاقه من كمى يكمي، إذا ستر وأخفى، ويُقال: كمى الشهادة يكميها، وإذا =

فقال لي: أنت تعلم ما يَتْلَف من الذهب في الأبنية، والمستعملات، ومعادن الذهب لا يتحصل منها /٣٧/ نظير ما ينفد، وأما الهند، فإني حَرّرت أَنَّ له ثلاثة آلاف سنة، لم يخرج منه ذهب إلى البلاد، ولا دخل إليه ذهب، فخرج منه، والتّجار من الآفاق تقصد الهند بالذهب العين(١) وتتعوض عنه بأعراضٍ(٢)، حشائش(٣) وصموغ(٤) لا غير، فلولا أَنَّ الذهب يُعْمل [لَعُدِم بالجملة] الكافية.

قال شيخنا(٥) شهاب الدين: أما قوله عما يدخل إلى بلاد الهند، من الذهب، ثم لا يخرج منه فصحيح، وأما إثباته لصحة الكيثمياء، فباطل لا صحة له. قال: وبلغني أَنَّ مِمَّنْ تَقَدّم هذا السلطان، فتح فتوحاً، فأخذ من الذهب وَسَق(٦) ثلاثة عشر ألف بقرة، قُلت: والمشهور عن أهل هذه البلاد جَمْع الأموال، وتحصيلها، حتى أن بعضهم إذا سُئِل كم معك؟ فيقول: ما أعرف، إلا أنِّي ثاني ولد يجمع على مال جَدِّه، أو ثالث ولد في هذا النَّقب(٧)، أو في هذا الجُبّ(٨)، وما نعلم كم هو؟ وهم

= كَتَمها، وتسمى (الحكمة) وتسمى (الصَّنْعَة)، «مفاتيح العلوم ١٩٣». وهو العلم الذي يُعْنى بطبيعة المادة، وتركيبها، وما يتناولها من تغيرات «الموسوعة العربية الميسرة ١٥٣٠ـ ١٥٣١».

(١) أي بالذهب نفسه، فعين الشيء نفسه، راجع «محيط المحيط ٦٤٩».

(٢) أعراض: الأعراض، أو العروض، هي الأمتعة التي لا يدخلها كيل، ولا وزن، ولا تكون حيواناً، ولا تكون عقاراً، «المصباح المنير ٢/ ٥٣».

(٣) حشائش: لعله يريد ما تشتهر به بلاد الهند من منتوجات زراعية من حبوب ونحوها مما هو مزدرع، راجع في معنى الحشائش، «تاج العروس ٤/ ٢٩٧ـ ٢٩٩»، و«تكملة المعاجم العربية ٣/ ١٧٥ـ ١٩٩».

(٤) صمُوغ: جاء في «كتاب النبات ٣/ ٨٦ـ ٨٧»: الصَّمْغُ، ما جَمُد من نَضْح الشجر، ولم يكن له مَمْضَغَة، يُقال: أَصْمغَ الشَّجرُ، إذا أخرج صَمْغَه، فهو نضوح ينضحها الشجر، بلا استخراج مستخرج، كما أطلق النويري الصموغ على أصناف كثيرة، بلغت ثمانية وعشرين صنفاً، مثل: الكافور، المُصْطَكا، الصِّبْر، المُرّ، الحلتيت، القطران، الزِّفْت، الأَنْزَرت، القمح العربي. وغيرها. راجع «نهاية الأرب ١١/ ٢٩١ـ ٣٢٥».

(٥) محمد بن المجد عبد الله الحسين الأزبلِّي، ثم الدِّمشقي الزرزاري، شهاب الدين، أبو الفرج، وُلِد سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م، تولى قضاء قضاة الشافعية بدمشق في ذي القعدة سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م، توفي في دمشق في رجب من سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م.
ترجمته في: تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٥٠، والدرر الكامنة ٤/ ٨٦ـ ٨٧.

(٦) وَسَق: الوَسَق، حِمْل بعير، والجمع وُسُوق، والوَسَق، ستون صاعاً، بصاع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والصَّاع خمسة أرطال وثلث، وهو على هذا الحساب مائة وستون مَنًّا، والوَسَق ثلاثة أَقْفِزة، وحكى بعضهم الكسر لغة، وجمعه أوساق، مثل حِمْل وأحمال. «المصباح المنير ٢/ ٣٣٦».

(٧) النَّقْب: جاء في «المصباح المنير ٢/ ٢٩١»: نقبت الحائط، ونحوه، من باب قتل، خَرَقْته. وجاء في «محيط المحيط ٩١٠»: نقب الحائط، خرقه وهو كالثقب في الخشب.

(٨) الجُبّ: هو البئر التي لم تُطْوَ، ومِمّا وجد لا مما حفَرَه الناس «القاموس المحيط ١/ ٤٥». وفي «محيط =

يتخذون أجباباً، لجمع الأموال، ومنهم من ينقب في بيته، ويتخذ به بركة ويسدها، ولا يدع إلا مقدار ما يسقط منه الدنانير، ليُجْمَع فيها الذهب وهم لا يأخذون الذهب المصوغ(١)، ولا المكسور، ولا السَّبَائِك(٢)، خَوْفاً من الغَبْن(٣)، ولا يأخذون إلا الدنانير المسكوكة(٤)، وفي بعض جزائرهم من يَنْصب على سطح داره علماً، كلما تكامل لأحدهم جَرَّة ذهب، حتى يكون لبعضهم عشرة أعلام وأكثر.

وحدّثني الشّيخ برهان الدين أبو بكر بن الخلال محمد البزّي الصّوفي، قال: بعث هذا السلطان عسكراً إلى بلادٍ وهي مجاورة للدواكير في نهاية حدودها، وأهلها كفار يدعى كل مَنْ ملَكَ منهم (الرَّا)، فلما نازله جيوش السلطان، بعث يقول لهم: قولوا للسلطان، أنه يكف عنا، ومهما أراد مِن المال نبعث له ما أراد من الدواب، لأحمله له. فبعث أمير الجيش يُعَرِّفه بما قال، فأعاد جوابه، بأَنَّه يكفّ عنهم القتال، ويؤمنه للحضرة معه، فلما حضر إلى السلطان أكرمه إكراماً كثيراً، وقال له: ما سمعت مثل ما قلت، فكم عندك من المال، حتى قلت إنَّا نبعث لك مهما أردنا من الدواب لتحملها ؟ فقال: تقدَّمني سبعُ رآات في هذه المملكة جمع كل واحد منهم سبعين ألف بايين(٥) /٣٨/ أموالاً، وكلها عندي حاصلة. فقال: والبايين؛ هو صهريج

= المحيط ٩٠»: الجبُّ، البئر، أو الكثيرة الماء، البعيدة القعر، أو الجيدة الموضع من الكلأ. أو التي لم تُطْوَ، مما وُجِد محفورا لا مما حفره الناس، ويطلق على الهُوَّة، التي لا يُعرف قرارها، جمعها أَجْبَاب، وجِبَاب، وجِبَبَة.

(١) المصوغ: جاء في «محيط المحيط ٥٢٤»: «صاغ الشيء هَيّأه على مثال مستقيم، كما يُفعل في صوغ الحلي، والأواني من الذهب والفضة، والصَّوْغ عند الصرفيين، هو أن يُؤْخَذ مادَّة أصلٍ، ويُتَصرَفّ فيها بإحداث هيئة، وزيادة معنى، فتبقى مادّةُ الأصل، ومعناه في الفرع، كما في صوغ الحلي، والأواني من الذهب والفضة.

(٢) السَّبائِك: السَّبيكة، القطعة المذوَّبة من الذهب، أو الفضة وجمعها سَبَائك. «المخصص ١٢/ ٣١»، و«محيط المحيط ٣٩٤».

(٣) الغبن: في البيع والشراء، الوكس، أو الخداع، ومنه ما هو يسير وهو ما يقوّم به مقوّم، ومنها ما هو فاحش، وهو ما لا يدخل تحت تقويم المقومين.

(٤) المسكوكة: السِّكَّة، هي الخَتْم على الدنانير، والدراهم، المُتْعامل بها بين الناس بطابع حديد يُنْقش فيه صُوَرٌ، أو كلماتٌ مقلوبة، ويُضْرب بها على الدينار، والدرهم، فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة، ولفظ السِّكة، كان اسماً للطابع، وهي الحديدة المُتَّخذة لذلك، ثم نُقل إلى أثرها، وهي النقوش الماثلة على الدنانير، والدراهم، ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته، وشروطه، وهي الوظيفة فصار عَلَماً عليها في عُرف الدول، وهي وظيفة ضرورية للمُلْك «المقدمة ٢/ ٧٠٠ـ ٧٠١».

(٥) ورد في «رحلة ابن بطوطة ٥٣٥، ٥٦٢» اسم (البايين) وذكر أنه في الهند، عبارة عن بئر متسعة جداً =

متسع جداً يُنزل له بسلالم من أربع جهات فأعجب السلطانَ مقالُه، وأمر بأن يُخْتم على الأموال باسمه، فخُتمت باسم السلطان، ثم أمر (الرّا) بأن يجعل له نوَّاباً في مملكته، ويُقيم هو بنفسه في حضرته بدِهْلي، وعرض عليه الإسلام، فأبى فأقرّه على دِيْنِه، وأقام في حضرته، وجعل له نُوَّاباً في مملكته، وأجرى السلطان عليه ما يليق بمثله، وبعث إلى تلك المملكة أموالاً جَمّةً فُرِّقت على أهله صدقة عليهم؛ لكونهم انتظموا في عديد رعاياه، ولم يتعرض إلى البايينات وإنما ختم عليها وأبقاها على حالها تحت ختمه. وقد ذكرت هذا على ما ذكره البزِّي، وهو معروف بالصدق، والعهدة عليه، والعائد فيها إن كان يعود فإليه.

وحدثني علي بن منصور العُقَيلي، من أمراء عرب البحرين[١]، قال: إن سِفَارَنا ما تنقطع عن الهند، وعندنا كثير من أخباره، وتواترت الأخبار عندنا، أن هذا السلطان محمد بن طغلق شاه، فتح فتوحات جليلة، وأنه مما فتح مدينة لها بحيرة ماء، في وسطها بيت بدّ معظم عندهم، يُقْصَد بالنذور، وكان كل نَذْر يجيء إليه، يُرمى في تلك البحيرة فلما فتحها قيل له عن ذلك، فشَقّ نهراً من تلك البحيرة، وصَرَّف الماء منها إلى أنْ تَصَرّف، ثم أخذ ما كان هناك من الذهب، وحمل منه وسَقَ مائتي فيل وآلاف من البقر.

قال: وهو رجل جواد كريم، يُحسن إلى الغرباء، سافر مِنّا رجلان إليه، وشملتهما السعادة بالحضور عنده فأنعم عليهما، وشَرفهما بالخِلَع وأجرى عليهما الأموال الجمَّة، وكانا مِمّن لا يؤبه إليه، من عَرَبِنا، ثم خيرهما في المقام، أو العَوْد، فاختار الواحد منهما المقام فأعطاه بلداً جليلاً، ومالاً جزيلاً، وشيئاً كثيراً من مواشي، الغنم والبقر، وهو الآن هناك مُمَوّلاً مُخَوّلاً[٢] وأما الآخر فسأل العَوْدة فأنعم عليه بثلاثة آلاف تَنْكةٍ ذهباً، وأعاده مَحْبُوّاً مَحْبُوراً[٣].

= مطوّية بالحجارة، لها دَرَج يُنزل عليها إلى وُرْدِ الماء، وبعضها يكون في وسطه وجوانبه القباب، من الحجر، والسَّقائف، والمجالس. ويتفاخر ملوك البلاد وأمراؤها بعمارتها في الطرقات التي لا ماء بها.

(١) البحرين: إقليم على ساحل بحر الهند، بين البصرة وعمان، من أهم مدنه، الخطّ، والقطيف، والآرة، وهجر، وهي العاصمة، وبينونة، والزَّارة، وجواثا، والسابور، ودارين، والغابة، سُمّي بهذا الاسم، لأنّ في ناحية قراه بحيرة على باب الأحساء، صالح أهلَها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في السّنة الثامنة من الهجرة وأمَّرَ عليهم (العلاء بن عبد الله بن عماد الحضرمي) حليف بني عبد شمس. «الطبقات الكبرى ١/ ٢٦٣»، و«معجم ما استعجم ١/ ٢٢٨» و«معجم البلدان ١/ ٣٤٦ـ ٣٤٨».

(٢) مُخَوّلاً: جاء في «لسان العرب ١٣/ ٢٣٨»: الخَوَل، ما أعطى الله تعالى الإنسان من العبيد والخَدَم. وخَول الرجل، الذي يملك أمورهم، وخوّلك الله مالاً أي ملكك.

(٣) مَحْبَوراً: أي مسرورا «القاموس المحيط ٢/ ٢»، و«محيط المحيط ١٤٢».

الباب الثاني: في ممالك بيت جنكز خان

/ ٣٩/ وفيه فصول:

* الفصل الأول: في الكلام عليهم جُملياً.
* الفصل الثاني: في مملكة القان الكبير صاحب التخت؛ وهو صاحب الصين والخطا.
* الفصل الثالث: في التورانيين، وهم فرقتان:

الفرقة الأولىٰ فيما وراء النهر.

والفرقة الثانية في خوارزم والقبجاق.

* الفصل الرابع في الإيرانيّين.

في الكلام عليهم جُملياً

جعلتُ هذا فصلاً جامعاً لذكرهم قبل ذكرهم علىٰ التفصيل في ممالكهم؛ لأنَّ هؤلاء منهم أربعة سلاطين بيد كل منهم مملكة عظيمةٍ، استولوا بها علىٰ غالب المعمور من حدود الفرات إلىٰ نهاية الشرق علىٰ الخط المستقيم المتصل بالسند[1] فالمسمىٰ منهم بالقان[2] الكبير - وهو المتغلغل في الشرق منهم - وهو القائم مقام جنكزخان والجالس علىٰ تخته[3]، وسيأتي ذكره - إن شاء الله تعالىٰ -.

والثاني منهم؛ هو صاحب إيران بجموعها وهي التي كانت بيد الأكاسرة[4].

والثالث منهم؛ هو صاحب القبجاق.

والرابع منهم؛ صاحب مملكة ما وراء النهر، فانقسمت بينهم مملكة توران؛ وهي مملكة الترك القديمة وبها كان أفراسياب[5].

وأما صاحب إيران فهو يفخر علىٰ الملكين صاحب القبجاق وصاحب ما وراء النهر بأنَّ جدَّه الأكبر هولاكو بن تولي بن جنكزخان[6] - وهو جدّ القان الأكبر الآن -.

---

(١) السند: هو النهر الفاصل بين إيران والهند قديماً، والسند إقليم بباكستان الحديثة ونهر يجري بها. «رحلة ابن بطوطة، تحقيق الشيال ٢٦٢».

(٢) القان: كلمة مغولية، تعني ملك كبير وسلطان عظيم، وقد سبق تعريفها.

(٣) التخت: كلمة فارسية، تعني العرش، كرسي الحكم. «لسان العرب ١/ ٤٢٢».

(٤) الأكاسرة: جمع كسرى، مأخوذة من اللفظ الفارسي خسرو، وهو لقب ملوك الفرس قبل الإسلام.

(٥) أفراسياب: أكبر الملوك الاسطوريين التورانيين من نسل تنورين افريدون، جلس على ملك توران بعد يشنگ.

(٦) هولاكو بن تولوي: الابن الرابع لجنكزخان، وأمه سيورقو قيتي بيكي ابنة جاكمبو أخي اونك خان ملك أقوام (كرايت)، قاد جيوش المغول جنوب البلاد الإسلامية وقضى على الإسماعيلية والخلافة العباسية، واستولى على الشام، وهزمت جيوشه في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ أمام المصريين، وتوفي سنة ٦٦٣هـ.

انظر: «جامع التواريخ لرشيد الدين ٢/ ٢١٩».

والملكان الآخران يفخران بأن جنكزخان لمّا قسّم البلاد بين بنيه ملك جديهما ولم يملك تولي ولا هولاكو ولده - جدّ صاحب إيران - بل كان هولاكو بن تولي مندوباً من جهة أخيه منكو كبكاخان(١) وارث الملك والتخت.

حدّثني الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيىٰ بن الحكيم نور الدين عبد الرحمان الطياري / ٤٠/ الكاتب البوسعيدي(٢): أنّه كان أرسله لدفع الإسماعيلية(٣) والأكراد(٤)؛ فلمّا أخذ بغداد(٥) تمكّن وعصىٰ واستقلّ بنفسه.

والواضح الجلي ما سنذكره عن شيخنا الفرد نادرة الوجود أبي الثناء الأصفهاني(٦) - إن شاء الله - في ذلك.

---

(١) منكو كبكاخان: ابن تولوي بن جنكزخان، حكم ما بين ١٢٥١ـ ١٢٥٨م نجان باليق.

(٢) البوسعيدي: نسبة إلى أبي سعيد هاد بن أولجايتو وخدابندة بن أرغون بن آباقا بن هولاكو، من سلاطين الإيلخانيين. «انظر: الدرر الكامنة ٣/ ٤٦٩».

(٣) الإسماعيلية: وهم فرقة من المسلمين تعتقد بإمامة إسماعيل ابن الإمام جعفر الصادق، ولهم أسماء مختلفة في شتى المناطق منها: الباطنية، والتعليمية، والسبعية، والحشيشية، والملاحدة، والقرامطة. «انظر: موسوعة الفرق الإسلامية ١٠٢ـ ١٠٨».

(٤) الأكراد: شعب يسكن هضبة فسيحة في آسيا الوسطى، وبلادهم موزعة بين تركيا وإيران والعراق وغيرها. «المعجم الوسيط ٢/ ٨١٣».

(٥) بغداد: عاصمة العراق، مدينة السلام، تقع على نهر دجلة، كانت حاضرة الدولة العباسية، أسسها أبو جعفر المنصور. «مراصد الاطلاع ٢/ ٢٠٩».

(٦) أبو الثناء الأصفهاني: محمود بن عبد الرحمن (أبي القاسم) ابن أحمد بن محمد، شمس الدين الأصفهاني، أو الأصبهاني: مفسر، وصوفي، كان عالماً بالعقليات. ولد بأصبهان سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م، وتعلم فيها. ورحل إلى دمشق فأكرمه أهلها، وأعجب به ابن تيمية. وانتقل إلى القاهرة فبنى له الأمير «قوصون» الخانقاه بالقرافة، ورتبه شيخاً فيها، فاستمر إلى أن مات بالطاعون في القاهرة سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م. من كتبه «التفسير ـ خ» في صوفية (دار الكتب الشعبية ١/ ٤٣) مخطوطة كاملة نفيسة (٨٤٣ ورقة) كبير، منه الجزء الرابع مخطوط، سماه «أنوار الحقائق الربانية» قال الصفدي: رأيته يكتب في تفسيره من خاطره من غير مراجعة، و«تشييد القواعد ـ خ» في شرح تجريد العقائد للنصير الطوسي، و«شرح فصول النسفي ـ خ» و«مطالع الأنظار في شرح طوالع الأنوار للبيضاوي ـ ط» و«ناظرة العين ـ خ» مصور في معهد المخطوطات، في المنطق، مع «شرحه ـ خ» ـ ناضرة العين ـ لأحمد بن عمر المالكي (٧٩٥)، و«البيان ـ خ» في شرح مختصر ابن الحاجب، أصول، و«بيان معاني البديع ـ خ» شرح البديع لابن الساعاتي في أصول الفقه، و«شرح مطالع الأنوار» للأرموي في المنطق، و«شرح كافية ابن الحاجب ـ خ» و«شرح منهاج البيضاوي».

ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٣٢٧ وبغية الوعاة ٣٨٨ وفهرست الكتبخانة ١/ ١٤٢، و٢/ ١١ و٥٤ و٢٣٩ و٢٧٢ والبدر الطالع ٢/ ٢٩٨ وشذرات الذهب ٦/ ١٦٥، وPrinceton 450 وطبقات الشافعية ٦/ ٢٤٧ والطبقات الوسطى ـ خ. وBrock.S.2:137 والفوائد البهية ١٩٨ والصادقية، الرابع من الزيتونة ٨ وفي مفتاح السعادة ٢/ ٤٩ وفاته سنة «٧٤٧» تصحيف تسع وأربعين. وكشف الظنون ١٩٢١

=

[جنكزخان]

وأمّا أصل جنكزخان جدّ هؤلاء الملوك في النسب، فنحن نذكر من منتهىٰ نسبهم إلىٰ أن نأتي إلىٰ جنكزخان منبعهم ومشرع الياسة[١] لهم، ثم نفرّع نسب كل ملك من هؤلاء الأربعة فنقول وبالله التوفيق:

قيل: إن جنكزخان ينتهي نسبه إلىٰ امرأة تسمّىٰ آلان قوا. كانت متزوجة بزوج أولدها ولدين اسم أحدهما: بكتوت، والآخر: بلكتوت. وأبناء هذين الولدين يسميان عند المغل[٢] الدرلكية.

ثم مات زوجها وبقيت مرملة بغير زوج، فحملت فأنكر عليها الحمل، وحملت إلىٰ من له الحكم بينهم لينظر في أمرها فسألها ممّن حملت؟ فقالت: ما حملتُ من أحدٍ إلاّ أني كنت قاعدة وفرجي مكشوف فنزل نور دخل في فرجي ثلاث مرات فحملت منه هذا الحمل، وأنا حامل بثلاثة ذكور؛ لأنَّ دخول ذلك النور كل مرَّة بولد ذكر فأمهلوني حتىٰ أضع، فإن وضعت ثلاثة ذكور، فاعلموا مصداق قولي وإلاّ فرأيكم فيَّ، فولدت ثلاثة أولاد ذكور في بطن واحد؛ بوقن فوغاغي، وبوسن سالجي، وبوذنجر. وهؤلاء الثلاثة المسمُّون بالنورانيين نسبة بالنور الذي ادَّعت أمهم أنه نزل في فرجها؛ ولهذا يقال عن جنكزخان إنَّه ابن الشمس.

وبوذنجر عليه عمود النسب إلىٰ جنكزخان، فنقول: إنَّ هذا بوذنجر بن الآن قوا أولد بغا، وبغا أولد ذو توم منن، وذو توم منن أولد قيدو، وقيدو أولد باي سنقر، وباي سنقر أولد تومنية خان، وتومنية خان أولد قيل خان، وقيل خان أولد تربان، وتربان أولد بيسوكي بهادر، وبيسوكي بهادر أولد جنكزخان جدّ هؤلاء الأربعة.

/ ٤١/ ونحن الآن نسرد نسبه منه إلىٰ الآن، فواصل أن نفرع أنساب هؤلاء الأربعة منه فنقول: جنكزخان بن بيسوكي بهادر بن تريان بن قبل خان بن تومنيه

= وأخبار التراث العربي، العدد ٦٤ ص ٣٦ و«نشرة مكتبية / ١» علوم العربية/ ٢.

(١) الياسا: وهي بالمغولية يساي، وتعني الأحكام والقانون، وهي مجموعة من القوانين التي وضعها جنكزخان ليسير عليها قومه.
«تاريخ جهانكشاي وعطا الله جويني، ترجمة د. محمد التونجي، حلب ١٩٨٥، ١/ ٦٢».

(٢) المغل: هم المنغول، شعب لم يكن على عهد جنكزخان، سوى مصطلح رسمي، وكان مجهولاً لدى بقية الشعوب، وكان حكام الصين يطلقون عليهم التتار.
والمغول: هم المغال، والمنغووا قبائل تركية سكنت قرب نهر اونون «تاريخ التمدن الإسلامي ٣/ ٥٠٨».

خان بن باي سنقر بن قيدو بن ذو توم منن بن بغا بن بوذنجر بن الآن قوا، إلىٰ هذه المرأة منتهىٰ نسبهم.

وهذه الحكاية في نسب جنكِز خان أكذوبة قبيحة، وأحدوثة غير صحيحة وإن صحت عن المرأة، فلعلَّها احتالت علىٰ سلامة نفسها من القتل، ولعلَّها سمعت قصّة مريم الزكيّة، فتعلَّقت بحبل الشبهة حتىٰ أضلَّت أقواماً بشبيه ذلك الحق وزورت كذباً علىٰ مثل ذلك الصدق: [من البسيط]

قد يبعد الشيء من شيءٍ يشابهُهُ   إنَّ السماءَ نظيرُ الماءِ في الزَّرَقِ

وها نحن نبدأ بذكر نبذة من ابتداء حال جنكزخان، وترقّيه إلىٰ أن ملك، ودانت له ملوك تلك الديار قبل الخوض في سياقة أنساب هؤلاء الملوك واتصالهم به، فنقول: حكىٰ الصاحب علاء الدين عطا ملك الجويني[(١)]: أنَّه كان ملك عظيم في قبيلة عظيمة يدعىٰ أونك خان[(٢)]. وكان مطاعاً في قبيلته، يُنقاد غليه عظماء رعيته فتردّد إليه جنكزخان في حال صباه وقربه وأدناه، وتوسم فيه النجابة والرئاسة، فزاد في ارتقائه علىٰ أقربائه، وأعلاه علىٰ من سواه حتىٰ نشأ بينهما الاتحاد، وانتسج الوداد فشبَّت نار الحسد في أقرباء ذلك السلطان، ونفخ في روعهم فحيل الشيطان أن وضعوا لجنكزخان المراصد والمصايد، ودفنوا له الأوابد والمكائد، وأعملوا الفكر في قطع حبل اتصاله عنه، ووضع موجبات قتله وانفصاله منه؛ فلمّا بالغوا في الوقيعة، وأسرفوا في الغيبة والشنيعة، تغيَّر أونك خان علىٰ جنكزخان تغيراً لم يظهره، وأسرَّ كدراً لم ينفره، وجمع فكراً في ذنب يأخذه به أو ينتحله أو جرم يتقوّله، واستشار فيه أصحابه، وجعل التوقع لذلك دأبه؛ فاتفق أنْ سخط أونك خان علىٰ صبيين /٤٢/ من مماليكه، فخافاه والتجئا إلىٰ حوزة جنكزخان واستجارا به؛ فأحسن إليهما وحنا عليهما ووعدهما بإزالة كدر السلطان وتلافي ما كان، فأنطقهما لسان الإحسان بهذه: [من الطويل]

إذا التزمَ المقدارُ حبلَ سعادةٍ   أتاكَ جميعُ الكائناتِ مُساعدا

---

(١) علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين الجويني: من كتاب التاريخ الإيرانيين المعروفين في العصر المغولي، كان أبوه وأخوه أصحاب ديوان جوين، عمل في بغداد أربعة أعوام، ولكنه قبض عليه بوشاية وزير باقاخان وتوفي سنة ٧٨١هـ. أهم مؤلفاته: جهانگشاي.
«انظر: عطا ملك جويني وكتابه جهانگشاي: د. محمد السباعي رسالة دكتوراه ـ جامعة القاهرة. ط ـ إيران ص١٦٧».

(٢) أونك خان: رئيس قبائل الكرايت والساتيز، وكان ذا قوة ومكانة تفوق غيرها.

وإذا جرىٰ القضاء علىٰ صعب سهّله وإذا أرادك الله لأمرٍ هياك له

وقالا له: إنَّ السلطان أونك خان يتوقع لك الوقيعة، ويتربص لك الإحن الشنيعة؛ فخذ حذرك، وأصلح أمرك، فرحل من ليلته بأتباعه وجماعته، ودهمه أعداؤه سحراً فلم يجدوا له أثراً ولا عرفوا له خبراً، ونفر العسكر ميّلوه فلم يلقوه، وقيل: بل لحقوه فعطف بجماعته إليهم وقاتلهم حتىٰ أتىٰ عليهم وغنم مالهم؛ فلما جمع أتباعه وأقاربه وأعزَّ مقامه وحمى جانبه، ودبَّ رجاله وآله، وبذل لهم قوته وماله، وخصَّ بإحسانه ذينك الصغيرين دون الناس، وأنزلهما منزلة العينين من الرأس وسمّىٰ كُلاً منهما ترّخاناً[1]، وكتب له أماناً وفرماناً[2] بفراغه من جميع المؤن والكلف وتفرغه لانتهاز الفرصة، واقتطاف الطرف، وأن ينهب في الفتوح قبل كل ناهب، وليسلب قبل كلّ سالب ويدخل علىٰ يده عامة البيوت فلا يمنع، ويحكم فلا يدفع، وأن لا يؤخذ بذنوب كثيرة؛ ولو تكررت ذنوبه واستمرت عيوبه، وأجرىٰ ذلك لجملتهما وآحادهما، وأن يستمرَّ ذلك إلىٰ سبعة أبطن من أولادهما.

ومن نسلهما الآن قوم لا عادية عليهم ولا لوم، محترمون عند الملوك، جارون علىٰ ذلك النهج المسلوك.

ثم شرع في الإحسان إلىٰ جميع من رحل عن أونك خان وباعده واتصلّ به وعاضده، وأفشىٰ فيهم الإنعام، وبثّ فيهم الإعزاز والإكرام حتىٰ تتالوا إليه أفواجاً، وتواردوا إليه فرادى وأزواجاً.

وأولادهم الآن أقرب الأخصين وأخصّ الأقربين، فقوي بذلك أمره وإمارته واشتدّت شوكته ومهابته، وراسل القوّاد فانقادت، واستلان القلوب /٤٣/ فلانت أو كادت فحينئذٍ جرد عسكراً كثيفاً وتبعاً ولفيفاً لمحاربة السلطان أونك خان وأمدّه بآخر يتلوه فنازلته العساكر الجنكزخانية، فقتل في أقرب أمد، وملك جنكز خان ما كان له من عدّة وعدد.

ثم بعث جنكز خان إلىٰ القبائل المتباعدة، والبطون المتباينة بما عرفهم به من حاله وعدله وبأسه وفضله وعلو شأنهم إن انضموا إليه، وتأييد سلطانهم إن عكفوا عليه، فتوالوا إليه كالسيل ورمل الفلا ورِجْل الجراد.

---

(١) ترخان: أو طرخان، طرخون، لقب يحمله أمراء وملوك تركستان. «جامع التواريخ ٢/ ١٧هـ».

(٢) فرمان: كلمة فارسية تعني أمر وحكم سلطاني، وتجمع: فرامين وفرمانات. «معجم الألفاظ العامية، لانيس فريحة ١٢٩».

وكان من أعظم القبائل المجيبة لدعوته الداخلة في إيالته القانعة برياسته قبيلتان بالغتان في العدد، نهايتان في الاستعداد والعدد؛ إحداهما تدعىٰ أويرات(١)، والأخرىٰ قنقورات(٢).

وأما القبيلة التي هي خدمه، ومنها عظمه تسمّىٰ قيات؛ وهي أكثر القبائل شهرة، وأتمّها كثرة.

وكان اسمه القديم «تموجين»؛ فلمَّا توطد أمره وعلا قدره سمّي جنكزخان(٣).

نبذة من عقيدته وياسته وقاعدته وعدّته:

قال الصاحب علاء الدين عطا ملك الجويني: الظاهر من عموم مذاهبهم الإدانة بوحدانية الله تعالىٰ، وأنَّه خلق السماوات والأرض، وأنَّه يحيي ويميت، ويغني ويفقر، ويعطي ويمنع، وأنَّه علىٰ كل شيء قدير.

قال: وفي جهانكشاي(٤): أنَّ من أولاده من كان بملّة عيسىٰ، ومن دان بملّة موسىٰ، ومنهم من اطرح الجميع، وكل من اعتقد من بنيه مذهباً لم يكن له تعصب علىٰ غيره، ومنهم من تقرَّب بالأصنام.

وكان جنكزخان إذا تهدَّد أحداً من الملوك أو كاتبه بالتحذير من صولته، قال له: إن أطعت كان لك كذا وكذا من الإعزاز والتقريب، وإن عصيت فالله أعلم بما يكون حالك معنا.

قال: ويلمح من هذا القول نوع من التوكل والتفويض.

وأمّا الياسة وأحوالها كثيرة؛ فمنها ما يوافق الشريعة المحمدية، قال: وليُعلم أنَّ هذا الرجل لم يقف علىٰ سيرة ملوك، ولا طالع كتاباً؛ وجميع ما نسب إليه من ذلك صادر عن قوة ذهنه /٤٤/ وحسّه، واستدراك الأصلح من قبل نفسه؛ فإنَّه استخرج لكلّ منهم سَهْماً، وفقَدَ قاعدة مقررة، ولكلّ ذنب عقوبة مقدرة، وعين حدوداً لا إمهال له عندهم ولا مغيّر. وأوعز أن يتعلم ذلك صغار أهله ويسرى امتثاله عن عقب

(١) اويرات: إحدى القبائل المغولية. «جهانگشاي ١/ ٧١».
(٢) قنقورات: أيضاً احدى القبائل المغولية «جهانگشاي ١/ ٧١».
(٣) في رحلة ابن بطوطة ٢٤٤: «إنه كان يعمل حداداً بأرض الخطا، وكان له كرم نفس وقوة وبسطة في الجسم، كان يجمع الناس ويطعمهم حتى صار له جماعة، فقدموه على أنفسهم، وغلب على بلده وقوي واستفحل أمره، فغلب على ملك الخطا وملك الصين والختن وكاشخر والمالق».
(٤) جهانكشاي: من تواريخ العصر المغولي، تأليف علاء الدين عطا ملك الجويني، أُلف سنة ٦٥٨هـ، ويقع في ثلاث مجلدات عن أحوال وقائع المغول حتى سنة ٦٥٥هـ.

الرجل منهم وكنسله؛ بعد أن أثبتها في كتاب سمّاه «الياسا الكبيرة»(١). وأمر أن يوضع في خزانته ويتوارثها أقارب عصبته وذريته، ونسخ ما كان لهم من قديم عوائد مذمومة بتنسكات محمودة مفهومة؛ فمن ذلك:

أنَّ من زنىٰ سواء إن كان محصناً أو غير محصن قتل.

ومن لاط قتل.

ومن تعمَّد الكذب قتل.

ومن سحر قتل.

ومن تجسس علىٰ قوم قتل.

ومن دخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما قتل.

ومن بال في الماء قتل.

ومن أعطي بضاعة وخسر ثم أعطي ثانية وخسر إلىٰ الثالثة قتل.

ومن أطعم أسير قوم أو كساه أو سقاه بغير إذنهم قتل.

ومن وجد هارباً أو أسيراً أو عبداً ولا يردّه قتل.

وكانوا يعتمدون في ذبح الحيوان أن تكتف قوائمه ويشق جوفه ويدخل أحدهم يده إلىٰ قلبه ويمرسه فركاً حتىٰ يموت، أو يخرج قلبه.

ومن ذبح كذبيحة المسلمين ذُبِح.

ومن وقع جمله أو فرسه وثقله في كرٍّ أو فرٍّ ومرَّ عليه من يتلوه بعده ولم ينزل لمساعدته قتل.

وقيل: كانت لهم ياسة قديمة: «إنَّ من ارتمس في الماء قتل».

وكان جنكزخان يعظم رؤساء كلّ أمةٍ وملّة، ويتخذ تعظيمهم وسيلة إلىٰ الله تعالىٰ.

قال: والمشهور من حالهم إسقاط المؤن والكلف عن العلويين(٢) والفقراء(٣) والقراء والفقهاء والأطباء وأرباب العلوم علىٰ اختلافهم والزهاد حتىٰ عن المؤذنين، ومغسلّي الموتىٰ. ومن آدابهم المستعملة وقوانينهم أشياء كثيرة منها: أن لا يأكل أحد

---

(١) كتاب القواعد الكبير «جهانگشاي ١/ ٦٢»: وهو القانون العرفي للمغول.

(٢) العلويون: وهم ذرية الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٣) الفقراء: المتصوفة.

من يد أحد طعاماً حتىٰ يأكل المطعم منه أولاً؛ ولو كان المُطعِم أميراً والمُطْعم أسيراً ولا يختص أحد بالأكل وحده دون أن يطعم جميع من وقع نظره عليه ذلك الطعام، ولا يمتاز أمير بالشبع من الزاد دون أصحابه، بل يقسمون الزاد بالسّوية، ولا يرمي أحد بالمأكول رمياً وقد قابل / ٤٥/ مناولة باليد، ولا يخطو أحد موقد نار ولا طبق زاد، ومن اجتاز بقوم يأكلون فله أن يجلس إليهم ويأكل معهم من غير استئذان، وإن لا يدخل الإنسان يده في الماء بل يأخذ ملء فيه ويغسل يديه ووجهه، ولا يبول أحد علىٰ الرماد، ولا يطأ عتبة الخركاه[١].

قال: وسمعت أنَّهم كانوا لا يرون غسل الثياب البتة ولا يميزون بين ما يميزه المسلمون في شيء من طاهرٍ ونجس البتة.

قال: ومن قوانينهم التي ألفت منهم: أن لا يتعصبوا لمذهب من المذاهب علىٰ مذهب، وأن لا يفخموا الألفاظ والألقاب في كلام، بل يتلفظ باسم السلطان كما يسمّىٰ غيره، فيقال قد تقدّم قاآن أو خان بكذا وكذا، وأن لا يتعرَّضوا لمال ميت أصلاً ولو ترك ملء الأرض ولا يدخلونه خزانة السلطان.

قال: وأما ترتيب العساكر والقانون المقرر في ذلك فاعلم أنه لا ينقل في تاريخ قديم ولا حديث أنَّ عسكراً اجتمع لسلطان كثرة كما اجتمع لهم كثرة عَدد وعُددٍ وقوة وصبراً وطاعة لسلطانهم إلاّ لأجل مشاهرةٍ ولا توقع مال وجاه، بل لمجرد الطاعة حسب.

ثم إذا رجعوا من القتال وكرب الحرب إلىٰ السكون والسلم أخذ السلطان منهم القلان[٢] والقبجور[٣] والأولاق[٤] والبدرقة[٥] من غير ضجر منهم ولا تأسف منهم؛ بل يؤدّونه إليه مختارين، ومتىٰ تجهزُّوا لقتال عرضوا آلات الحرب وغيرها علىٰ أمرائهم حتىٰ تعتبر أمراؤهم الخيط والإبرة، ويؤاخذونهم علىٰ تجويد آلةٍ أو تقصير في سلاح.

---

(١) الخركاه: بيت يسمى عندهم الخرفة، وهي عصى من الخشب يجمع شبه قبة، وتجعل عليها اللبود، ويفتح أعلاه لدخول الضوء والريح جعل البادهج ويسدّ متى احتيج إلى سدّه «رحلة ابن بطوطة ٢٠٠».
وورد أنه: خيمة كبيرة، سرادق سلطاني.

(٢) في هامش الأصل، «القلان: دراهم ترصد برسم الكلق مقررة على البلاد».
وهي ضريبة كانت موجودة قبل القبجور، تجبىٰ من المسلمين وغير المسلمين. «تركستان ٦٥٦».

(٣) القبجور: ضريبة تجبى بنسبة ١٪ من المواشي، وتوزع على الفقراء والمعوزين.

(٤) في هامش الأصل، «الأولاق: خيل البريد».

(٥) في هامش الأصل: «البدرقة: في معنى البائزة، البائز: لوح البريد»
والبائز: لوح من الذهب أو الفضة أو الخشب أحياناً. «تركستان ٦٨٨ـ ٧٣٨».

قال: وأغرب من ذلك أنَّ نساءهم تنهض في حال بُعدهم وسفرهم بجميع ما يتوجه علىٰ رجالهم الغياب من الكلف والسخر السلطانية.

ومن ذلك: أنَّ كل بنت حسناء تجمع من كل مكان ويحملن جميعاً في رأس كل سنة إلىٰ السلطان فيختار منهن ما يصطفيه له ولأولاده، ويردّ الباقي.

ومن أحسن الترتيبات وضعهم أمراء الألوف(١) والمئات(٢) والعشرات(٣) فهو أخبط نظام لما يحاولونه، وأسرع إفهام لما يطلبونه.

ومن جملة بأسهم: أَنه إذا كان أمير في غاية القوة والفطنة وبينه وبين السلطان كما بين المشرق /٤٦/ والمغرب حتىٰ أذنب ذنباً يوجب عقوبة بعث إليه، ولو من أخسّ أصحابه من يؤذيه بموجب ما يقتضيه ذنبه، ولو كان في ذنبه ما يوجب قتله ألقىٰ نفسه بين يديه ذليلاً، وأخذه الرسول بموجب جرمه حقيراً كان أو جليلاً.

ومنها: أنَّ كل أمير لا يتردد إلىٰ سواه، ولا يتغير عن موضعه؛ فإن فعل ذلك عوقب أو قتل، لا يتردد إلىٰ أحدهم أولاده.

ومنها: وضعهم البريد بكلّ مكان طلباً لحفظ الأموال وسرعة إيصال الأخبار ومستجدّات الأحوال.

وكان لجنكزخان عادة مستمرة؛ وإن كانت إلىٰ الآن سارية في الأولاد وهي وفور الرغبة في الصيد والأمر به والركوب إليه في كل وقت يتفرغ فيه من القتال والمنازلة، وربّما اشتملت حركته علىٰ مسيرة ثلاثة أشهر، ويحافظ العسكر علىٰ ما تحويه تلك الحلقة، ويضايقون ما بين الخراكي(٤) والبيوت بالحبال. ولم يكن غرض السلطان من ذلك مجرد الصيد خاصة؛ وإنما مراده تمرين عساكره، واستمرار وامره، وإدمانهم علىٰ استعمال السلاح وسفك الدماء، وتغلُّب القوة الغضبية والمقاهرة علىٰ الأرواح.

ومن عاداتهم: أنَّه متى خرج من قِبل واحدٍ منهم شيء من الصيود أدّبَ بحسبِ ما يتقدّم في أمره؛ بل ربّما قتلوه.

ويسوقون تلك الصيود كسوق الغنم، وتتواتر الرسل إلىٰ السلطان بصورة حالها

---

(١) أمير الألف: أي تحت إمرته ألف جندي، وهو عادة لا يقل عن (خان).

(٢) أمير المائة: أي تحت إمرته مائة جندي، وهو عادة لا يقل عن (بيك).

(٣) أمير العشرة: أي تحت إمرته عشرة جنود، ويسمى (أونباشي) وأون بمعنى عشرة، وباشي بمعنى رئيس.

(٤) الخراكي: جمع خركاه، وهي الخيمة الكبيرة.

وكثرتها وقلّتها فإذا ضاقت الحلقة وتراكمت الصيود مشحونة بغرائب الوحوش والحيوانات السهلية والجبلية دخل هو وأولاده وخواصه وتتوقوا في القتل والقنص والتفرّج؛ وربّما استشرف القان من مكانٍ عال لينظر فروسية أولاده، وقوّة مراسهم؛ وإذا تخلّف من تلك الصيود بعد ذلك شيء اجتمع ولدانهم وصبيانهم وشفعوا إلىٰ السلطان في إطلاق ذلك المتخلّف.

وحكي في بعض صيودهم واجتماع ما اجتمع في بعض تلك الحلق لهم من الوحش وضاقت عليهم المذاهب، وعاينت التلف فاستقبلت السلطان بوجهها وجاء إليه بالصياح العالي علىٰ هيأة المستعطف /٤٧/ المستجير فتقدَّم بفكّ الحلقة وإطلاق تلك الوحوش.

قال الصاحب علاء الدين الجويني: كان له عدّة أولاد ذكور[١] وإناث من الخواتين[٢] والسراري[٣]. وكان أعظم نسائه أو يولجين بيكي. وفي رسم المغول تعظيم الولد بنسبة والدته فكان له من هذه المذكورة أربعة أولاد معدين للأمور الخطرة وهم كتخت ملكه بمنزلة أربعة قوائم سدته.

وكان أكبرهم توشى والد قردوا[٤]، وباته[٥]، وبركة[٦]، وتركجار[٧]؛ فوثب توشى علىٰ الصيد والقنص؛ لأنه امرؤ محبوب إليهم موصوف عندهم.

ورتب جغتاي ـ الذي هو أصغر منه ـ لتنفيذ الياسات والآرغوا[٨] والمقابلات وأمثال ذلك.

ورتب أوكتاي[٩] لما يتعلق بالعقل والرأي والتدبير والولاية والعزل، واختيار الرجال، واختيار الأعمال، وعرض الجيوش وتجهيزها.

وحكي: أنَّه قال لأولاده في جملة وصاياه إليهم وحثه لهم علىٰ المُوافقة وإجراء

(١) وهم: جوجي وجغتاي واوگداي وتولوي «تركستان ٧١٥».
(٢) الخواتين: جمع خاتون، وهي السيدة عريقة النسب أو زوجة الملك.
(٣) السراري: جمع سرية، وهي الجارية.
(٤) لعله: جوجي بن جنكزخان.
(٥) باته: أي باتو بن جوجي.
(٦) بركة: هو بركا وبركاي وبركاء «جامع التواريخ ١/ ١٤، ٢/ ٢٣٢».
(٧) تركجار: لعله تولوي، الابن الرابع لجنكزخان لوروده حسب ترتيب أولاده.
(٨) الأرغوا: أو يرغو أو يارغو: كلمة مغولية بمعنى العدل والقانون، ويارغوجي بمعنى القاضي «جامع التواريخ ١/ ٢٢٧، تركستان ٥٥٩ـ ٦٨٣».
(٩) أوكتاي: هو أو گتاي قآن بن جنگز خان «جامع التواريخ ٢/ ٢١».

الأمور علىٰ انقياد الصغير للكبير، وضرب لهم أمثالاً منها: أنه دفع إليهم عدّة أسهم مفردةٍ، وأمر بكسر كل واحد منها فكسر في أسرع وقت، ثم جمع من تلك الأسهم عدّة كبيرة وأمر كل واحدٍ منهم بكسرها مجتمعة فعجزوا، قال: كذا حالكم في الوهن متفرقين.

ولما عرضت لهم الممالك وذلّت لهم المسالك عيَّن لكل منهم أقليماً بمفرده ومنزلاً يختصّ بحشده وعدده؛ فعيَّن لأخيه أوتكين نويان[١] حدود بلاد الخطا[٢]، وعين لولده الكبير توشىٰ من حدود قيالق غلىٰ أقصىٰ شفشين وبلغار[٣]؛ وعيّن لجغتاي من حدود الإيغور[٤] إلىٰ سمرقند وبخارىٰ. وجعل لنفسه مقاماً في قياس مجاورا ومالق، وجعل ولده أوكتاي ولي عهده.

وكان موضعه في عهد حدود اعل وقراباق؛ فلما جلس علىٰ تخت السلطنة انتقل إلىٰ الموضع الأصلي بين الخطا وبلاد الإيغور، وأعطىٰ ذلك الموضع لولده كبوك.

وكان ولده تولي متصلاً به، وبالجملة كان موضعه نقطة دائرة ملكه وبنوه حوله كمحيط الدائرة. وكان أولاده وأحفادُه أزيد من عشرة آلاف؛ هذا ما ذكره الصاحب علاء الدين.

وقد سألت شيخنا فريد الدهر شمس الدين /٤٨/ الأصفهاني عن بني جنكزخان، فقال: إنَّ جنكزخان أولد أربعة أولاد هم: جوخي، وأجدى، وطولي، وأوكتاي؛ فقتل جوخي في حياة أبيه. وكان أكبر أولاده وأعزَّهم، وخلّف أولاداً.

قال ابن الحكيم: هم؛ باتواقا، وأورده، وبركة، ويووك، وجمني.

قال شيخنا شمس الدين: المشهور باتو وبركة ابنا جوخي؛ فلمّا قتل أبوهم كان جنكزخان أبوه قد عيّن له دست القبجاق وما معه وأضاف إليه آراك وتبريز وهمدان

---

(١) يقصد به تولوي، حيث كان يحمل لقب نوين الأكبر، وكان أصغر إخوته، واللقب بالمغولية يكه نوين «جامع التواريخ ق٨/ ١٢٧ط برزين».

(٢) الخطا: قبائل سكنت شمال شرقي إيران في عهد السلاجقة وأقاموا دولة سنة ٥١٨هـ، كانت بين ممالك المغول وخوارزم، قضي عليهم سنة ٦٠٩هـ. «جامع التواريخ ١/ ١١٥».

(٣) البلغار: من بلغار القولجا، وهي مدينة الصقالبة، شديدة البرد لا يكاد البرد يقلع عن أرضهم صيفاً ولا شتاءً. «انظر: مراصد الإطلاع ١/ ٢١٩».

(٤) الإيغور: قوم من الأتراك يدينون بالمسيحية واليهودية والمانوية، وهم أكثر أقوام الأتراك والمغول تمدناً، كانوا يقطنون شمال شرقي تركستان، وشمال نهر قاريم، وكان لهم خط خاص بهم و هو الخط الإيغوري. «جامع التواريخ ١/ ١٩٥هـ».

ومُراغة، وأوصىٰ جنكزخان بأن يكون تخته لولده الصغير أوكتاي، وأن تكون مملكة ما وراء النهر وما معه لولده الآخر جداي[١]، ولم يجعل لطولي شيئاً؛ فاستقلَّ أوكداي بتخت أبيه جنكزخان، واستقلَّ بدست القبجاق وما معه ولم يتمكن جداي ممّا له من مملكة ما وراء النهر.

ثم مات أوكتاي وأرث التخت وملك بعده ولده كيوك. وكان رجلاً شرّيراً جباراً متسلّطاً، قوي النفس، فقوي علىٰ بني أبيه، وحكم عليهم حكماً قاهراً[٢]، وهمَّ بمعانده باتو ونزع يده. وبعث أميراً اسمه الجكداي إلىٰ أران وبقية المضافات معها إلىٰ باتو وأمره بإمساك نواب باتو بها وحملهم إليه، وسمع نواب باتو بذلك فكتبوا إلىٰ باتوا بالاستئذان علىٰ ما يكون اعتمادهم عليهم، فوصل الجكداي المجهز من جهة كيوك.

وفي تلك الساعة بعينها عاد جواب باتوا علىٰ نوابه بمسك الجكداي وتقييده وحمله إليه، فقامت شيعة أولئك النواب المقيدين، ففكُّوا قيودهم، وأمسكوا الجكداي وقيّدوه وحملوه إلىٰ حضرة باتوا فسلقه بالماء؛ فلما بلغ هذا كيوك مُرسله عزَّ عليه وعظم لديه، وجمع ستمائة ألف فارس، وسار كل واحدٍ منهما لملتقىٰ الآخر وقتاله؛ فلمَّا تقاربا حتىٰ كان بينهما نحو عشرة أيام مات كيوك فاضطرب من كان معه.

ثم اتفق رأي الخواتين والأمراء علىٰ مكاتبة باتو فكتبوا إليه بإعلامه بموت كيوك، وإنه هو أحقّ بتخته فيفعل ما يراه.

فقال باتو: لا حاجة لي به؛ وإنما أبعث إليه بعض أولاد تولي. وعيَّن له منكوقان بن تولي وجهَّز إليه هو وأخوه قبيلة قان /٤٩/ وهولاكو، وجهَّز معهم باتو أخاه بركة في مائة ألف فارس من بهادرية[٣] العسكر ليجلسه علىٰ التخت، ثم يعود فأخذه معه وتوجّه به، ثم أجلسه وعاد؛ فلمّا مرَّ ببخارىٰ اجتمع بالشيخ سيف الدين الباخرزي[٤] من أصحاب شيخ الطريقة نجم الدين كبرى[٥]، وحسن موقع كلام

(١) جداي: وهو أوكداي.

(٢) كان كيرك سفاحاً، عقد حلفاً بين المغول والعالم المسيحي ضد المسلمين. «تركستان ٦٩٤».

(٣) البهادرية: جمع بهادر، وهي لفظة فارسية تركية بمعنى شجاع، بطل، وكان هؤلاء يشكلون فرقة للحرب الخاص للقاآن «تركستان ٥٤٩».

(٤) الشيخ سيف الدين الباخرزي: من شعراء القرن السادس الهجري، ومن مشايخ المتصوّفة، كان مريداً للشيخ نجم الدين كبرى، عاصر العطار، أشعاره بالفارسية، مات سنة ٦٢٩هـ «فرهنك أدبيات فارسي ٨٣».

(٥) نجم الدين كبرى: أبو الجناب، أحمد بن عمر، من رجال التصوف، مؤسس السلسلة الكبروية، قتل =

الباخرزي عنده وأسلم علىٰ يده، وتأكدت الصحبة بينه وبين الباخرزي فأشار عليه الباخرزي بمكاتبة المستعصم الخليفة[1] ومتابعته ومهاداته، فكاتب الخليفة وبعث إليه هدية وتردّدت بينهما الرسل والمكاتبات والتحف والمهاداة.

ثم إنَّ منكوقان لمّا استقلَّ بالتخت ملك أولاد جغطاي مملكة ما وراء النهر تقيّداً لما كان جنكزخان أوصىٰ به لأبيهم جغطاي ومات دونه.

وعلت كلمة منكوقان وجاءت إليه رسل أهل قزوين وبلاد الجبال يشكون من سوء مجاورة الملاحدة لهم وضررهم بهم، فجهزهم أخا هولاكو في جيوش جمةٍ لقتال الملاحدة وأخذ قلاعهم وقطع دابر دولتهم؛ فحسَّن هولاكو لأخيه منكوقان أخذ ممالك الخليفة، وخرج علىٰ هذا؛ فبلغ هذا بركة بن جوخي فصعب عليه لما تأكد بينه وبين الخليفة من الصحبة، وقال لأخيه باتو: إننا نحن أقمنا منكوقان وما جزاءنا منه أنه يكافئنا بالسوء في أصحابنا، وينقض عهدنا، ويخفر ذمتنا ويتعرّض إلىٰ ممالك الخليفة وهو صاحبي وبيني وبينه مكاتبات وعقود مودَّة، وفي هذا ما فيه من القبح.

وقبح علىٰ أخيه باتو فعل هولاكو، فبعث باتو إلىٰ هولاكو بأنّه لا يتعدّى مكانه فجاءته رسالة باتو؛ وهو وراء نهو جيحون ما عَبَرَه، فأقام في موضعه بمن معه سنتين كاملتين حتىٰ مات باتو، وتسلّطن أخوه بركة بعده فحينئذٍ قويت أطماع هولاكو وبعث إلىٰ أخيه منكوقان يستأذنه في إمضاء ما كان أمره به من قصد ممالك الخليفة وانتزاعها منه وحسَّن له ذلك فأجابه إليه.

ودخل هولاكو إلىٰ البلاد وأوقع بالملاحدة[2] واتَّهم سبعمائة نفرٍ من أكابر همدان وتلك البلاد المضافة إلىٰ باتو، ثم إلىٰ بركة / ٥٠/ بالميل إلىٰ بركة، والمباطنة علىٰ هولاكو ومنكوقان، وقتلهم عن آخرهم وامتدَّ في البلاد وقصد دست القبجاق وعدا إليه، وأقام ثلاثة أيام لا يجد مقاتلاً؛ فلمّا كان في اليوم الرابع دهمتهم الخيل

= سنة ٦١٠هـ، له: فواتح الجمال، ورسالة الخائف الهائم، وله أشعار كثيرة، قتل في هجوم المغول. «فرهنك أدبيات ٢ ٥٠٢».

(١) المستعصم: آخر خلفاء العباسيين، تولى الخلافة العباسية سنة ٦٤٠هـ وقتل سنة ٦٥٦هـ على يد المغول، كان ضعيف الرأي لم يكن له من الحكم شيئاً، سيطر عليه نساؤه ووزراءه. «البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٠».

(٢) يقصد بهم الإسماعيلية، وهم عدة فرق ويخص منهم الصباحية أتباع حسن الصباح المسمى بشيخ الجبل، وآخر حكامهم خورشاه المعتزل سنة ٦٥٥هـ، سكنوا قلاع أصفهان وقهستان، وأشهر قلاعهم آل موت. «انظر: فتوحات هولاكو خان ٧ـ ١٠» وقد أوردنا تفاصيلاً عنهم في هامش سابق.

وداسهم بركة بجنوده وعساكره، ودارت الدائرة علىٰ هولاكو حتىٰ همَّ بالهزيمة فترك أمير كبير كان معه اسمه سنتاي وهو المنسوب إليه عقبة سنتاي بالعراق، وأمسك برأس فرس هولاكو، وقال له: أين تروح ؟

ثم استمرَّ القتل في أصحابه، فتأخر حتىٰ صار نهر الكرّ بينه وبين بركة، وجاء بركة حتىٰ وثب علىٰ نهر الكرّ، ولم يجد له سبيلاً إلىٰ العبور، ورجع هولاكو وعاث في البلاد. وعامَ في تيار الفساد، وفعل فعلته، وقويت العداوة بينه وبين بركة قان، وخف حاذة من الجيش لمقاومة أعدائه.

ثم لمّا جرىٰ علىٰ بغداد ما أجرىٰ العيون دماً، وأسَال النفوس أسفاً استأثر هولاكو بجلال الدين ابن الدوادار[1] الخليفة المستعصمي، واتخذه هولاكو موضع رأيه، ومكان سرِّه؛ فلمّا كسر هولاكو وتضعضعت رعان جيشه ـ كما ذكرنا ـ شكا إلىٰ جلال الدين بن الدوادار ما أصابه من الكسرة وفناء جنوده، فقال له جلال الدين: عندي عسكر جيد خير من هؤلاء، قال: من هم ؟ قال: عسكر الخليفة، فإن ابن العلقمي[2] قطعهم وإلا فهم أحياء موجودون وأنا أجيبهم إليك فأعجب هولاكو

---

(١) جلال الدين بن الدوادار: أحد أركان الحكم في عهد الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين، وكان ينوي خلع الخليفة وإجلاس آخر. «تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٦٤».

(٢) ابن العلقمي: محمد بن أحمد (أو محمد بن محمد بن أحمد) بن علي، أبو طالب، مؤيد الدين الأسدي البغدادي المعروف بابن العلقمي: وزير المستعصم العباسي. ولد سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م. اشتغل في صباه بالأدب. وارتقى إلى رتبة الوزارة سنة ٦٤٢هـ، فوليها أربعة عشر عاماً. ووثق به «المستعصم» فألقى إليه زمام أموره. وكان حازماً خبيراً بسياسة الملك، كاتباً فصيح الإنشاء. اشتملت خزانته على عشرة آلاف مجلد، وصنف له الصغاني «العباب» وابن أبي الحديد «شرح نهج البلاغة» ونفى عنه بعض ثقات المؤرخين خبر المخامرة على المستعصم حين أغار هولاكو على بغداد سنة ٦٥٦هـ، وولي له الوزارة مدة قصيرة ومات سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، ودفن في مشهد الإمام موسى بن جعفر الكاظم ببغداد، وخلفه في الوزارة ابنه عز الدين «محمد بن محمد بن أحمد» جاء عنه في العسجد المسبوك: «.. كان ـ ابن العلقمي ـ عالماً، أديباً، حسن المحاضرة، دمث الأخلاق، كريم الطباع، خيّر النفس، كارهاً للظلم، خبيراً بتدبير الملك، لم يباشر قلع بيتٍ ولا استئصال مالٍ..» ولمحمد الشيخ حسين الساعدي كتاب بعنوان «مؤيد الدين ابن العلقمي» ط. وغيره.

ترجمته في: الحوادث الجامعة، المنسوب لابن الفوطي، ٢٠٨ و٣٣٦ وما بينهما. والفخري، لابن الطقطقي. والبداية والنهاية ١٣/ ٢١٢ وفير T.H.Weir في دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٢٤١ وشذرات الذهب ٥/ ٢٧٢ والعسجد المسبوك ٦٤٠ ،والوافي بالوفيات ١/ ١٨٥ وتاريخ الخميس ٢/ ٣٧٧ ومرآة الجنان ٤/ ١٤٧ وابن الوردي ٢/ ٢٠١ والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٠ وفوات الوفيات ٢/ ١٥٢ وابن خلدون ٥٣٦ و٥٣٧ والسلوك للمقريزي ١/ ٣٢٠ و٤٠٠ وأخبار الدول للقرماني ١٨٠ـ ١٨٢، الأعلام ٥/ ٣٢١.

كلامه، ووقع منه موقعاً حسناً، وكتب له يراليغ[(١)] مضمونها: «إننا قد جهزنا جلال الدين بن الدوادار في شُغل مهمّ لنا ورسمنا له بما يفعل، ومرسومنا أن يمتثل جميع الخوانين والأمراء والنواب والقراولات وكافة الناس أمر جلال الدين المذكور، وأنَّه مهما فعل يقتل من يريد ويخلّي من يريد!، وأن لا يعارض في أمرٍ من الأمور، ولا يعترض عليه بسببٍ من الأسباب، ومن هذا ومثله فتوجّه جلال الدين وحطّ يده في كلّ من بقي يجده من أمراء المغل وأكابرهم والمقربين عند هولاكو، وفعل فيهم ما أراد وفتك فيهم أنواع الفتك حتىٰ وصل إلىٰ بغداد واستعدَّ فيها / ٥١/ لما يريد أن يعمله، وأخذ منها ما أراد ومن أراد ؟! ودخل البرية هارباً من هولاكو علىٰ عزم الوصول إلىٰ مملكة مصر فأدركه أجله قبل الوصول إليها.

وبلغ هولاكو ما فعله جلال الدين في المغل من الفتك والقتل والتنكيل، ثم ما أخذه من بعده وخرج به هارباً منه، فانفطرت كبده ومات غمّاً[(٢)].

قال شيخنا شمس الدين الأصفهاني: ومات هولاكو ولم يملك ملكاً مستقلاً؛ وإنَّما كان نائباً عن أخيه منكوقان ولا ضربت باسمه صكة درهم ولا دينار؛ وإنَّما كانت تضرب باسم أخيه منكوقان.

ثم كان هكذا أبغا[(٣)]، ومن بعده إلىٰ أن استقلَّ أرغون بن أبغا[(٤)] بالملك وأضاف اسمه في السكة إلىٰ اسم صاحب التخت أمير لا يزال مقيم في مملكة إيران مع هولاكو، وبنيه له عندهم حرمة كبيرة، ومكانة محفوظة حتىٰ ملك محمود غازان بن أبغا[(٥)] فكتب اسمه بمفرده علىٰ السكة وأسقط اسم القان ـ صاحب التخت ـ وأهان أمر أميره حتىٰ لم يبق له وضع ولا حرمة، وامتهن ذلك الجانب، واستقلَّ بالملك والسلطنة في بلاده.

---

(١) يراليغ: مفردها يرليغ، وهي كلمة مغولية بمعنى حكم وأمر، تعادل كلمة فرمان الفارسية. «صبح الأعشىٰ ٤/ ٤٢٣».

(٢) مات هولاكو سنة ٦٦٣هـ، ودفن في جبل شاهو قبال دهخوارقان.

(٣) أبغا بن هولاكو: هو آباقا، حكم بعد والده ثمانية عشر عاماً، ومات سنة ٦٨٠هـ. «جامع التواريخ مج٢/ ح١/ ٣ـ ٨٦».

(٤) أرغون بن أبغا: هو أرغون بن آباقا، حكم بعد أبيه (٦٨٣ـ ٦٩٠هـ). «جامع التواريخ مج٢/ ح١/ ١٢٣ـ ١٦٧».

(٥) محمود غازان بن أبغا: هو محمود قازان بن أباقا، صاحب العراقين وخراسان وفارس وآذربيجان والروم، أسلم وحسن إسلامه سنة ٦٩٤، وفشا الإسلام في التتار، طرق الشام وغلب عليه، مات قرب همدان سنة ٧٠٣هـ. «فوات الوفيات ٤/ ٩٧، جامع التواريخ ٢/ ١٤».

قال: أنا ما أخذت البلاد إلاّ بالسيف وقام الأمر علىٰ هذا مدَّة محمود غازان ومن بعده.

قال الشيخ: ولهذا ينتقص ملوك بني جنكزخان بيت هولاكو، يقولون: إنهم ما نقلوا الملك عن جنكزخان ولا عن ورّاث جنكزخان؛ وإنما أخذوه باليد والعدوان، ومطاولة الأيام.

وسأذكر في ترجمة مملكة إيران شبهةً أخرىٰ في دعوىٰ ملوك دست القبجاق إنَّ مراغة وتوريز لهم علىٰ ما كان يبلغنا من أخبارهم في كل وقت، ثم ما حدَّث به الفاضل نظام الدين أبي الفضائل يحيىٰ بن الحكيم.

وسألت ابن الحكيم والشريف محمد بن حيدرة الشيرازي: عمّن يعلمانه بقي من أولاد هولاكو؟ فقال كل منهما: إنَّه لم يبق أحد محقق النسب إلاّ ما قيل عن محمد المنسوب إلىٰ عنبرجي علىٰ كثرة اختلاف فيه.

ثم جاءت الأخبار وصحت بعدم هذا محمد.

وقال لي /٥٢/ نظام الدين بن الحكيم: إنَّ أهل هذا البيت تفانوا بعضهم علىٰ يد بعض لخوف القائم منهم علىٰ ملكه حتىٰ إنَّ كثيراً من أبناء ملوكهم كانوا يتخفون من الملك القائم، حتىٰ إنَّ بعضهم كان يخلد إلىٰ الحرف والمهانات لتستسقط همّته فيترك ويجعل هذا سبيله للخلاص وطلباً للسلامة حتىٰ إنَّ بعضهم كان قد عمل نساجة، وبعضهم عمل في الأدم، وبعضهم باع الشعير علافاً.

ومن هذا قال ويقال في أنساب كل منتسب منهم لكثرة التخليط من الأمهات ومخالط آبائهم للعوام حتىٰ خفت أنسابهم فجهلت أحوالهم.

وأخبرني الأمير الكبير المقدم نسيب السلطنة طايربغا: أنَّه أوّل من استقلَّ من هذا البيت لسلطان جدّهم جنكزخان[1] ـ والتلفظ الصحيح جنكص خان[2] بالصاد ـ

(١) حكم بعد محمو غازان بن أرغون:
اولجايتو خدابنده رغون (٧٠٣ـ ٧١٦هـ).
أبو سعيد بهادر بن اولجايتو (٧١٦ـ ٧٣٦هـ).
أياقا خان بن أرتو.
موسىٰ خان بن علي (٧٣٦ـ ٧٣٩هـ)
محمد خان بن منگو تيمور.
ساتي بيك بنت أولجايتو(٧٣٩هـ).
شاهجان تيمور بن ألا فرنگ (٧٣٩ـ ٧٤٠هـ).

=

ثم أوكديه ـ والتلفظ الصحيح به أوكداي[١] ـ ثم كيوك قان[٢]، ثم مونككا قان[٣] بن طولي بن جنكزخان ثم آدي يكا، ثم قبلى قان[٤]، ثم دمرقان[٥]، ثم برياي، ثم تزي طيزي، ثم قيسان قان، ثم سندمرقان.

فأما نسبه إلىٰ جنكزخان فهو: سندمر قان بن طرمالا بن خمكم بن قبلى قان بن طولي بن جنكز خان. وهذا نسبه.

وأما ملوك الترك ـ وهي تركستان وما وراء النهر ـ

وأوّلهم جغطاي بن جنكزخان، وقد نبهنا علىٰ أنَّه لم يستقل، ثم ولده مكتوكان، ثم ابنه قراهولاوو، ثم ولده مبارك شاه.

ثم إنَّ القان بلغه إنَّ قيدو بن توشا بن كيوك بن أوكداي بن جنكزخان تسلّطن بهذه المملكة، فخافه لكون كيوك عمّه كان وارث التخت عن أبيه أوكداي، وأبوه أوكداي كان وارثه عن أبيه جنكزخان فسيّر براق[٦] بن بسنطو بن منكوقان بن جغطاي لدفع قيدو فدفعه وقعد مكانه.

ثم استقلَّ براق، ثم دوا[٧] ـ ولد براق ـ، ثم أولاد دوا، واحداً بعد واحد وهم: كيجان[٨]، ثم أسنبغا[٩]، ثم كيك[١٠]، ثم الجكداي[١١]، ثم دواتمس[١٢]، ثم

= سليمان خان (٧٤١ـ ٧٤٥هـ).
طغا تيمور خان (٧٤٦ـ ٧٥٣هـ).
أنو شيروان العادل (٧٥٤ـ ٧٥٦هـ). «جامع التواريخ ٢/ ١٤».

(٢) فترة حكمه (١٢٠٦ـ ١٢٢٧م).

(١) فترة حكمه (١٢٢٩ـ ١٢٤١م).

(٢) فترة حكمه (١٢٤٦ـ ١٢٤٨م).

(٣) فترة حكمه (١٢٥١ـ ١٢٥٨م).

(٤) قوبيلاي قاآن (١٢٦٠ـ ١٢٩٤م).

(٥) تيمور قاآن (١٢٩٤ـ ١٣٠٧م).

(٦) هو براق بن اسن دوا بن موتكن بن جغتاي، حكم ما بين ١٢٦٦ـ ١٢٧١م.

(٧) دوا بن براق، حكم ما بين سنة ١٢٨٢ـ ١٣٠٧م وهو الحاكم العاشر في السلسلة الجغتاتية.

(٨) هو قونجوق بن دوا حكم سنة ١٣٠٨م.

(٩) هو ابن بغا بن دوا، حكم ما بين ١٣١٠ـ ١٣١٨م.

(١٠) كيك: كان كافراً تولى حكم ما وراء النهر (رحلة ابن بطوطة ٢٤٦) حكم ما بين سنة ١٣١٨ـ ١٣٢٦م.

(١١) جكداي: هو الجكطي كان كافراً تولى الحكم بعد أخيه بگ «رحلة ابن بطوطة وهو ايلجيداي بن دوا، حكم سنة ١٣٢٦م».

(١٢) هو دواتمر بن دوا، حكم سنة ١٣٢٦م.

ترماشيرين[(١)] ـ رحمه الله ـ ثم رجل ليس هو بابن دوا اسمه توزون[(٢)] بن أوكاكان بن [جنكز خان] وتخللّ من خلال هؤلاء من توثب علىٰ الملك ولم ينتظم لهم حال، / ٥٣/ ولا علت لهم أعلام دولة. وممن أراد الملك وعلت كلمته، ولم يُملَّك، ساوو بن أركتمر بن بغا تمر بن براق.

وبقي الملك بعد موت ترما شيرين ـ رحمه الله ـ متخبطاً حتىٰ قام هذا جنغصوا؛ فأمّا نسبه إلىٰ جنكز خان فهو: جنغصو بن دراتمر بن طوا بن براق بن بسنطو بن منكوقان بن جغطاي بن جنكزخان باسمه جداي وهو مصحح لما يقول، عارف به.

وأمّا ملوك دشت القبجاق فأوّل من ملك منهم باتو بن جوجي بن جنكزخان، ثم أخوه بركة[(٣)].

ثم وجميع ملوك بني جنكزخان يغلب عليهم الكرم، وتخويل من قصدهم لا يرضىٰ أحد منهم بالقليل. فأمّا القان الكبير منهم ـ صاحب الخطا ـ فتلك شيمته لا تسمح إلاّ بالذهب ليس هذا من واحدٍ بعينه، بل كل من تسنَّم منهم ذروة ذلك التخت كانت هذه سجاياه.

أما ما يحكىٰ في القديم منهم عن منكوقان بن طولي بن جنكزخان، فيخشىٰ حاكيه أن ينسب إلىٰ الخرافة في حديثه والمجازفة في قوله.

حكىٰ الشيخ الفاضل شمس الدين أبو العباس أحمد بن أبي المحاسن الطيبي، قال: حدّثني عزّ الدين أبو البقاء الأردويلي، قال: سمعت بكرم القان منكوتمر فقصدت حضرته متفرّجاً بتلك البلاد ومتوصلاً إليه، ولازمت بابه مدّة وما لي من يُوصلني إليه ولا لي أحد من أرباب دولته؛ فبينا أنا ذات يوم هناك من جملة الناس طُلِبت التخصيص فحملت إلىٰ رجلٍ سري بباب منكوتمرقان[(٤)]، فأمر الترجمان ذلك الرجل فسألني عن اسمي وبلدي وحالي ومقدمي، فشرحت له أمري، فقال: أشرف

---

(١) ترما شيرين: سلطان ما وراء النهر هو طرمشيرين، عظيم المقدار، كثير الجيوش والعساكر، ضخم المملكة شديد القوة، عادل الحكم، بلاده متوسطة بين أربعة ملوك «رحلة ابن بطوطة ٢٤٦ هو ابن دوا حكم ١٣٢٦ـ ١٣٣٤م».

(٢) هو بوزن بن دوا تيمور، حكم سنة ١٣٣٤م.

(٣) بركه بن جوجي بن بركايّ جوجي بن جنكيزخان، حكم ما بين ١٢٥٧ـ ١٢٦٦م، «جامع التواريخ ٢/ ٣٣٢».

(٤) منكوتمرقان: هو موتكو تيمور بن كوقوخان بن باتوني جوجي، حكم ما بين سنة ١٢٦٧ـ ١٢٨٠م «شجرة النسب، تركستان ٧١٩».

القان فرآك فاستغربك فأمر بالسؤال عنك ونحن نعلمه، ثم ذهب الرجل هنيهة، ثم طلبني، فأحضرت إلىٰ بين يدي منكوتمر قان وهو في خفّ من الناس، وبقي يحدّث ذلك الرجل؛ وهو يحدث الترجمان ويسألني عن أشياء من أمور بلادي وطريقي وما رأيت.

ثم قال: القان؛ يقول لك: ما جاء بك من بلادك البعيدة إلىٰ هنا وأيُّ شي معك من طرف البلاد تقدّمه له، فقلت /٥٤/ له: ما جاءني إلاّ ما سمعت من كرم القان وليس معي شيء، ولو كان معي شيء ما فارقت أهلي ووطني وجئت؛ فلمّا أعادوا عليه كلامي ضحك خفياً، ثم أشار إليهم ـ أيْ أنه صدق ـ وأمر لي بشيء ما فهمته؛ فلمّا خرجنا قال لي ذلك الرجل المخاطب لي: قد أمر لك القان بما يصل إليك، ثم قال لي: علىٰ أي جهة تعود إلىٰ بلادك ؟ قلت له: في البحر إلىٰ الحجاز لأحجّ ثم أعود إلىٰ بلادي، فحمل لي إلىٰ المركب هناك أمتعة بعتها بعدن ومكة بألف ألف درهم.

وحكىٰ لي الفاضل نظام الدين أبو الفضل يحيىٰ بن الحكيم قال: قصد رجل منكو تمرقان بزجاج من عمل حلب، ووصل إليه وقدّمه له، فشرب في بعض أوانيه فأعجبه ما شفَّ من جوهر الزجاج عن حمرة الشراب، فقال: هذا من أين ؟ فقيل له: من حلب، فقال: تُعطىٰ له حلب!، فقال بعضُ وزرائه: إنَّ حلب ليست لنا، فقال: فيوقف هذا الرجل ويصبُّ عليه الذهب، حتىٰ يغطيه! فقالوا له: توقفه في خركاه ويصبّ عليه الذهب، فقال: أنتم غرضكم بهذا لن يموت ولا يكون في فضاء، فعملوا ما قاله فجاء جُملاً كثيرة عظيمة فجمعوها، وقالوا له: قد عملنا ما رسم القان، ولكننا نريد أن يقع نظر القان عليه قبل أن يأخذه، فقال: هاتوه؛ فلما رآه، قال: أنتم ما قصدكم إلاّ أني أبصر هذا فأستكثره. أعطوه هذا وقدره معه مرة أخرىٰ فأعطوه.

وحكىٰ أيضاً: أنَّ فراشاً كان يخدم تولي بن جنكزخان ـ أبا منكوتمر ـ ثم خدم منكوتمر قان بعده، ثم عدم وتطلبه منكوتمر فلم يجده فبينما هو يوماً في الصيد رأىٰ الفراش في بعض الجبال وقد ساءت حاله وطال شعره وظفره، فقال له: أين كنت ؟ فقال: في هذه البرية، فقال: ما حملك علىٰ هذا ؟ قال: التسمية، قال: لا قُل لي الصحيح ؟ فقال: هو ما أقول للقان، فقال له منكوتمر: لا ما حملك علىٰ هذا إلاّ العشق فأطرق فقال له منكوتمر: فلمن أنت عاشق ؟ فسكت، فعلم منكوتمر أنه عاشق في أحد من جهته، فقال له: كأنك عاشق فلانة ؟ /٥٥/ لا فلانة ؟ لا فلانة ؟ يعد عليه واحدة بعد واحدة من خواتينه وأتباعهن، وهو يقول: لا، إلىٰ أن ذكر واحدة من

أجلّ حظاياه، فسكت الفراش، فقال منكوتمر: أنت عاشق في هذه بلا شك.

ثم إنَّه طلبها وقال لها: فلان له عليَّ أبي حقّ وعليّ، وهو عاشق فيك، وما له في هذا ذنب ولا لكِ، هذا شيء يتعلَّق بقلبه ما له فيه حيلة، وأريد أن أزوّجك به فبكت، وقالت: يا قان بعدك أتزوج بهذا؟ فقال: سوف تبصرين ما أعمل.

ثم إنَّه عمل طوي وسأل الأمراء أن ينصب للفراش كرسياً فوقهم وأجلسه فوق الجميع، فقالوا له: الأمرُ أمرُ القان فنصب له كرسياً فوقهم وأجلسه عليه، وزوّجه بتلك الحظية، وعمل له يرتاً[1] عظيماً لا يصلح إلاّ للقوامين الكبار وأجراه مجرىٰ واحد منهم.

قلت: ومن تأمّل هذه الحكاية عرف سعة إحسان هذا الرجل وكرمه، فإنه أخذ غلاماً لا يُؤبَه إليه جعله ملكاً، وسمح له بما لا يسمح بمثله من المال والجاه والمحبوب.

* * *

(١) يرت: كلمة مغولية تعني خيمة أو مقر إقامة. «فرهنك عميد ٢/ ٢٠٠١».

في مملكة القان الكبير صاحب التخت، وهو صاحب الصين

قد ذكرنا في صدر الفصل الأول: أنَّ القان الكبير هو القائم مقام جنكزخان، والجالس علىٰ تخته؛ وهو متغلغل في الشرق، ومقامه نجان بالق من بلاد الخطا؛ وهو أجلّ ملوك توران التي في مملكة الترك[1] من قديم الدهور والآباء، وبها وبما جاورها أو قاربها كان أفراسياب[2]، غير أَنَّه خرج عن هذا القان ما هو الآن لابني عمة الدين؛ تقدّم ذكرهما.

وإلىٰ هذا القان إشارة الثلاثة أبناء عمّه؛ وهو كالخليفة عليهم، فإذا تجدّد في مملكة أحدٍ منهم مهم كبير[3] مثل لقاء عسكر، أو قتل أمير كبير بذنب، أو صلة إليه اليسق ـ أي الحكم أو ما يناسب هذا ـ أرسل إليه وأعلمه ولا افتقار إلىٰ استيذانه، ولكنّها عادة مرعية.

/٥٦/ قال الفاضل نظام الدين ابن الحكيم الكاتب البوسعيدي[4]: إنَّ هذا القان ما يزال يكتب إلىٰ كل من القانات[5] الثلاثة يأمرهم بالاتحاد والألفة، وإنَّه إذا كتب إليهم بدأ باسمه قبلهم، وكلّهم مذعنون له بالتقدّم عليهم.

وحدّثني بكثير مما عليه صاحب هذه المملكة، وأَنَّهم علىٰ ما هم عليه من الجاهلية علىٰ السيرة الفاضلة الشاملة لأهل مملكته، ومن يرد إليها بجناح العدل

(١) المغول فرع من الأتراك.

(٢) بطل أسطوري توراني قديم، حارب رستم حروباً طويلة، وأخيراً قتله رستم، وهو جزء من الصراع الإيراني التوراني «انظر: شاهنامة الفردوسي ٣٥».

(٣) أمر هام مشكلة كبرى ويسمى هذا الاجتماع باسم الطوى أي الضيافة «رحلة ابن بطوطة ٢٤٨» أما القوريلتاي فهو اجتماع لتنصيب إلقاآن «تركستان ٦٤٩».

(٤) نسبة إلى أبي سعيد بهادر بن أولجايتو خدابنده بن أرغون بن القاآن هولاكو.

(٥) القانات جمع مفرده قان، وهي في الأصل قاآن تعادل كلمة شاهنشاه وخاقان وقيصر ـ والقاآن سمة لكل من يلي الملك عند المغول «رحلة ابن بطوطة ٤٢٣».